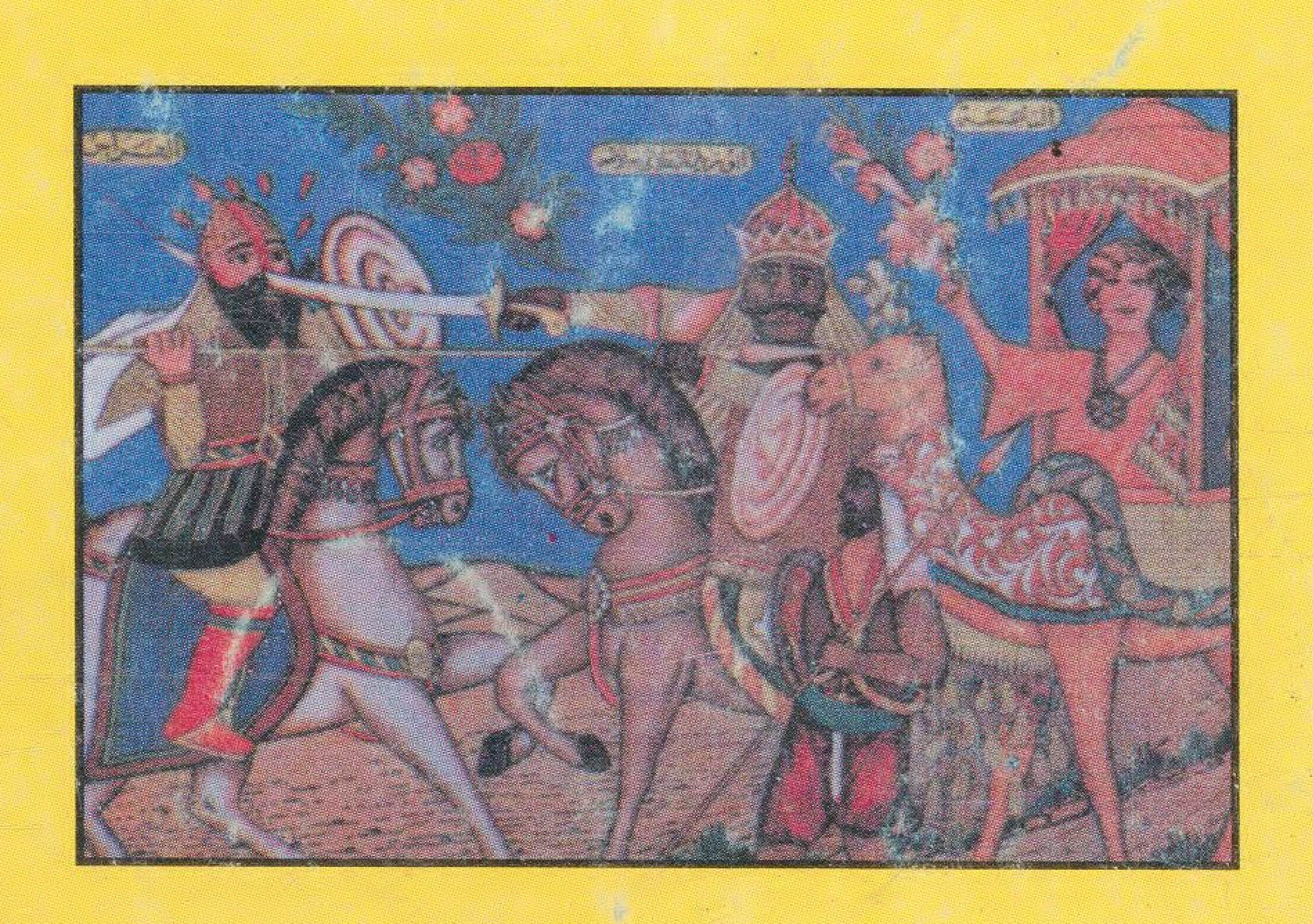


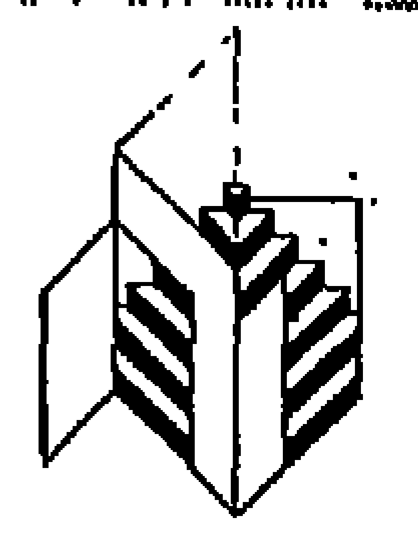
الهيئة العامة لقصور الثقافة



أبو زيد الهلالى



تأليف : محمد فهمى عبد اللطيف



الهيئة العامة لقصور الثقافة

GENERAL ORGANIZATION for CULTURE CENTERS

٢٩

مكتبة الدراسات الشعبية

أبو زيد الهلالى

تأليف : محمد فهمى عبد اللطيف

اغسطس ١٩٩٨م

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى

١٦ شارع أمين سامى قصر العينى - القاهرة رقم بريدى ١١٥٦١

* تصميم الغلاف :
للفنان محمد بغدادى
* موتيفة الوسط
أبو زيد الهلالى يضرب
الهراس، رسم مطبوع
على الورق يُباع فى
الأسواق العربية

الطبعة الثانية

المحتوى

الفصل الثانى

كيف نشأت قصة بنى هلال وكيف تطورت

الفصل الثالث

مظاهر البطولة كما تصورها القصة

بواكير دراسة الوجدان

قلنا فى مقام سابق: إن الكاتب الراحل محمد فهمى عبد اللطيف كان من أوائل من انتبهوا لحقيقة غابت طويلا عن أذهان المثقفين المصريين: وهى أن الأدب المصرى الحقيقى الذى تفاعل معه الشعب وتأثر به ودخل فى تكوينه الوجدانى لم يكن هو ذلك الأدب الرسمى الذى يكتبه المثقفون يعبرون به عن رؤاهم وأفكارهم؛ إنما هو ذلك الأدب الشعبى الذى تمثل فى: السير والملاحم «كالسيرة الهلالية» و«عنترة» «وذات الهمة» و«حمزة البهلوان» و«فيروز شاه» و«سيف بن ذى يزن» و«الظاهر بيبرس» وغيرها، وفى كتاب «ألف ليلة وليلة»، وفى الأغنيات والمواويل والحواديت والأمثال والبكائيات والألغاز والألعاب التى كانت أقرب إلى المواقف المسرحية المقصود بها ترسيخ قيم نبيلة.

هذه الأعمال ظلت قرونا طويلة فى حالة جدل متواصل

ومستمر مع جماهير الشعب، يحفظونها عن ظهر قلب، وينفحونها، ويعيدون صياغتها، يضيفون إليها ما تستحدثه الأيام من تجارب ودروس وعبر. ولأنها لم تكن نتاج قرائح المحترفين، ولا وليدة إرهاصات ذاتية لكاتب من الكتاب أو مؤلف من المؤلفين، إنما كانت البذرة الأولى تنتقل من عقل إلى عقل ومن بيئة إلى بيئة ومن زمن إلى زمن لتتكامل وتنضج على نار جماعية لذلك فإنها استطاعت أن تعكس روح الجماعة، عقلية الجماعة، الأمل الإنساني، الفكرة القومية، فحق لها أن تكون مؤثرة بقوة وإيجابية، وأن تصبح سجلا حيا لمسيرة حضارية طويلة مثمرة . وحتى أواخر الأربعينيات كانت هذه السير والملاحم والأغنيات والحكايات والحواديت زاداً غنيا يسد احتياجا وجدانيا ويخدم الفكرة القومية، يرسخ قيما تربرية وأخلاقية عظيمة" لم يقض عليها انتشار الراديو وتقدم التقنيات الصناعية فى أجهزة الاتصال الجماهيرى. وأصبحت هذه الكنوز القومية الأصيلة مهددة بالانقراض لولا قلة قليلة جدا من المثقفين النابهين من أبناء القرى الذين تربوا عليها صغارا وتذوقوها كباراً، على رأسهم الدكتور «**فؤاد حسنين على**» أول أكاديمي يتعرض لدراسة قصصنا الشعبى، وهذا الكاتب الذى نحن بصدده الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف الذى لم يكن

أكاديميا لكنه حظى بشرف الريادة فى هذا المجال، وكان كتابه: «أبو زيد الهلالى» أول محاولة لدراسة هذه الشخصية الملحمية التراثية الشعبية التى يعشقها ثلاثة أرباع الشعب المصرى ومعظم الشعوب العربية.

كتب محمد فهمى عبد اللطيف دراسته هذه فى وقت مبكر بأسلوب سلس، موجز العبارة، دقيق التحرير والتعبير يتقصى الحقيقة العلمية والتاريخية قدر الطاقة، فإذا يعطينا دراسة ضافية عن بنى هلال وسليم: أوليتهم فى التاريخ. قبائلهم فى نجد، نزولهم إلى مصر وخروجهم منها، رحيلهم إلى أفريقيا واستيلائهم على القيروان ونشوء الخلاف بينهم. يدرس كيف نشأت قصة بنى هلال وكيف تطورت. يدرس مظاهر البطولة كما تصورها القصة. يدرس تأثير القصة فى المجتمع المصرى وتأثر القصة بالمجتمع المصرى. ثم يدرس أدب الهلاليين وشعرهم. ثم يقارن بين هذه الملحمة الحربية وبين إلياذة هوميروس.

إن هذا الكتاب على صغر حجمه نتاج بحث دءوب مضن، وفحص وتحقيق وتدقيق. لقد أضاء هذه السيرة وأبرز قميتها الجوهرية الأصيلة. وكانت أول طبعة لهذا الكتاب فى سلسة إقرأ بدار المعارف فى عام ١٩٤٦، ثم اختفت لمحدوديتها. وأعيد

طبعه مرة أخرى فى دار ومطابع المستقبل عام ١٩٨٣ وكانت هى الأخرى محدودة. ونظراً لأهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية والأدبية آثرنا أن نعيد طبعه فى مكتبة الدراسات الشعبية لعلنا نوقظ الاهتمام مجددا بهذه السير والملاحم التى يجب أن نظل نتعلم منها إلى ما لا نهاية.

خيرى شلبى

مقدمة الطبعة الثانية

كان هذا الكتاب عندما صدر فى طبعته الأولى في منتصف الأربعينات أول دراسة أدبية علمية كتبت عن الأدب الشعبى فى مصر، فإن قضية الأدب الشعبى لم تكن حتى ذلك التاريخ قد أخذت مكانا من تفكير الباحثين واهتمامهم. وما كانوا يرون فى معارض هذا الأدب القصصية والأدبية والفنية شيئاً جديراً بأن يكون موضوع بحث ودراسة، لأنها قضية كانت تقترن فى تقديرهم بقضية العامية، وما كان إحياء العامية لتكون لغة الحياة الفكرية عندنا إلا دعوة استعمارية يراها العلماء والمفكرون الحادا فى اللغة والدين والقومية العربية الإسلامية. ومن هنا كانت الغضاضة التى ملأت نفوسهم من الأدب الشعبى، وإن كان يحلو لهم أن يتفكهوا بشىء من نوادر هذا الأدب وطرائفه وأن يتناقلوا فى سمرهم بعض ألوانه من المواليا والحكم والأمثال.

وفى القرن التاسع عشر راجت الدراسات الشعبية فى دول أوربا، وكانت بعض الجامعات فى هذه الدول قد بدأت تدرس المأثورات الشعبية بوصفها فرعا من فروع الدراسات الإنسانية التى لها قيمتها فى الفكر الإنسانى، وكان كتاب ألف ليلة وليلة

قد وصل إلى الأوربيين مترجما بقلم «جالان» وغير جيلان» فشغف به المستشرقون وأقبلوا على دراسته، وتحقيق أصله ومصادر قصصه، على حين لم يكن لنا أى اهتمام بشيء من هذا كله، لأننا كنا نعتبر الاهتمام بدراسة هذه المأثورات الشعبية الحادا دينيا فى حق اللغة العربية، لغة القرآن والتراث الإسلامى، وهى اللغة التى يحاول الاستعمار أن يزحزحها عن مكانتها حتى تقوم مكانها العامية الدارجة. ومن هنا كان العلماء وأهل الفكر ينظرون إلى المأثورات الشعبية على أنها شيء للعامة وحدهم، وليس مما يليق أن تكون موضع اهتمام أو عناية من العلماء وأهل الفكر.

ولما جاء علماء الحملة الفرنسية إلى مصر، وعكفوا على دراسة الحياة المصرية، كتبوا فصلا طويلا عن الموسيقى المصرية وأغانى المصريين، ودونوا فى هذه الدراسة نماذج من تلك الأغانى التى كانت ذائعة فى البيئات الشعبية، ثم جاء أحمد زكى باشا شيخ العروبة فأراد أن يجازى بعض المستشرقين، فقدم فى أواخر القرن الماضى إلى مؤتمر المستشرقين رسالة ضمنها أشعار الحزن التى كانت ترددها الندابات والمعددات فى المآتم، كما قدم رفيقه الشيخ محمد راشد رسالة عن اللغة الدارجة فى القاهرة شحنها كما يقول بأحمال الزجل والمواويل

والأغاني والأدوار والموشحات التي يستعملها العامة وبلسانهم..
ثم جاء المغفور له أحمد تيمور باشا فجمع الأمثال والكنايات العامية وأصدرها في ثلاثة مجلدات، وكتب قاموس العامية الذي لم يطبع إلى اليوم، وهذا كله كان عمل جمع لمادة الأدب الشعبي والمأثورات الشعبية، لم تتناوله الدراسة العلمية، ولا البحث العلمي الذي يحدد قيمته، ويوضح معالمه، ويضعه في منهج له أصوله وقواعده.

وفي أوائل الثلاثينات كتب المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات بحثا ضافيا عن ألف ليلة وليلة، وبعد ذلك كتبت الدكتورة سهير القلماوي رسالتها للدكتوراه عن هذا الكتاب، ولكنها دراسة في بحث الزيات وفي رسالة الدكتورة سهير أساسها تحقيقات المستشرقين وأرائهم عن هذا الكتاب، ولم تكن دراسة علمية تتناول الكتاب في موقعه وبيئته الشعبية. لهذا كان كتاب أبو زيد الهلالي الذي كتبته في أوائل الأربعينات عن القصة الهلالية أو قصة بني هلال وسليم، أول دراسة عملية صدرت عن الأدب الشعبي في مصر، وأحب أن أقول إن الأدب الشعبي بكل مأثوراته وألوانه الشعبية كان إلى ذلك العهد بعيدا عن اهتمام الباحثين، وكانت النظرة إلى هذا الأدب نظرة غضاضة وإهمال، ولهذا اضطررت في المقدمة التي قدمت بها الكتاب في طبعته

الأولى أن أدعو دعوة حارة إلى الاهتمام بالأدب الشعبى ودراسته، ووضعه فى منهج دراسى يتناول القصص الشعبى ودراسته، ووضعه فى منهج دراسى يتناول القصص الشعبى، وحكم «جحا» ونوادره، وأمثال «ابن عروس» ومواعظه، وفى العادات والطقوس التى تتلاقى بها جماهير الشعب فى موالد الأولياء وحضرات الشيوخ والدراويش مما يطالعه القارئ فى تلك المقدمة، وليس هناك ما يسعد الكاتب مثل أن يرى فكرته قد تحققت، ودعوته قد أثمرت، وأنى لسعيد حقا إذ أرى الأدب الشعبى بكل أشكاله وألوانه قد أصبح موضع اهتمام كبير، ومجال دراسات ناضجة أقل ما يقال فيها إنها وضعت هذا الأدب فى موضعه اللائق من الدراسات الإنسانية.

هذا الكتاب

لا يزال الأدب بجميع فنونه وألوانه يحلق فوق رؤوس الجماهير ويتعالى على البيئات الشعبية، ولا يزال أهل الأدب والفن يترفعون على مستوى العامة بما يصطنعون من الامتيازات والخصائص فى تفكيرهم وتعبيرهم، وفيما يتناولون من شئون الحياة ومظاهر الكون، ورغبات الناس وتصاريف الدنيا.

والحجة الوحيدة لأهل الأدب على هذا الترفع هى أن الفن سمو ورفعة، فليس من غايته أن ينحدر إلى البيئات الشعبية وأن يجاريها فى مباذلها، وإنما غايته أن يسمو بهذه البيئات وأن يرتفع بها إلى أعلى، فيهذب عواطفهم، ويصقل مشاعرهم، ويجعلهم يحسون بإنسانيتهم على وضع أنبل وأكرم، وهذه حجة لها وجاهتها وقوتها، ولكنى أراها تدعو إلى كل هذه المبالغة فى الكبرياء والتحفظ، فإنا مع (رومان رولان) فى دعوته «إلى إدخال الفن فى البيئات الشعبية وتجريده من امتيازاته وأمجاده وأوضاعه الرسمية التى اصطنعها أهل الفن اصطناعا، وأقاموها أسوارا شاهقة تفصل بينهم وبين عامة الناس وتميزهم فى

غدوهم ورواحهم كأنهم طبقة الكهان»، ولكنى لا أستطيع أن أقول أبدا إن الفن - وأعنى الأدب خاصة - يجب أن يصير شعبيا عاميا يتجاوب مع عواطف الجماهير ورغباتهم بأسلوبه وبفكرته وبما يهدف إليه من الغايات.

ولقد عاش الأدب العربى آمادا طويلة وهو فى جمهرته ربيب القصور وساحات الملوك، فما كان يمشى بين الناس إلا ممهورا باسم الخلفاء والولاة والحكام كأنه الدراهم والدنانير، ومكن فى الآونة الأخيرة رأينا الأدباء يتجهون إلى طبقات الشعب وينزلون إلى معترك الجماهير ويتلمسون فى هذه المجالى مادة لإنتاجهم وتصويرهم، وهو اتجاه حميد من غير شك، وإنها لخطوة طيبة فى تقريب المسافة بين من يسمونهم الخاصة وبين من يسمونهم العامة، ولكنا لا نستطيع على أى حال أن نسمى هذا اللون من الأدب أدبا شعبيا يموج بعواطف البيئات الشعبية ويتجاوب مع رغباتهم وميولهم ويؤثر فى تكوين شخصياتهم وتلوين نفسياتهم، بل هو لون من الأدب لا يتصل بتلك البيئات إلاّ فى مادته. ومع ذلك فقد يكون فيه كثير من التلفيق المصطنع، والكذب المخترع، والصورة التى لا تتأتى ولا تتحصل إلا فى خيال مبتدعها.

على أن هذه البيئات الشعبية لم تكن لتنتظر حتى يتنزل إليها ذلك الأدب الرفيع من عليائه، فتجد فيه نفسها وتنهل منه ما

يروى عواطفها ويربى شخصيتها، ولكنها وجدت نفسها فى أدبها الخاص، وفيما تفيض به عواطفها من الأحاديث والأسمار ، والقصص والأشعار، والحكم والأمثال والأغانى والأناشيد، والاعتقادات والنزعات، وفيما يتصل بهذا كله من ألوان للذة العقلية وضروب التسلية الفكرية وميول العقيدة الدينية. ذلك لأن الجماعات مهما يكن طابعها من الانحطاط والجمود لا يمكن أن تعيش مطوية على نفسها مكبوتة العواطف والنزعات، وإنما هى تنطلق على سجيتها فى التعبير عن فيض احساساتها وتستهدى الفطرة فى التصوير الفنى لشتى رغباتها ولهفاتها وما يضطرم بين جوانحها من الانفعالات الوجدانية الساذجة أو العميقة.

وللشعب عندنا من هذه الألوان تراث أدبى حافل، وهذا التراث الشعبى هو أقوى مؤثر فى حاة البيئات الشعبية، وأكبر محرك لوجدانات الجموع والجماهير، وبهذا يمكن أن نقول إن هذا التراث هو الدعامة الأولى فى بناء شخصية الشعب، وتكييف عواطفه وتلوين اتجاهاته، فلا يستطيع أحد أن يقول أن الجموع الشعبية قد تأثرت شخصيتها أو تأثر تفكيرها بالمعلقات أو المطولات، أو دواوين الشعراء من عهد امرىء القيس إلى اليوم، أو بما انتجه وينتجه الكتاب والباحثون وأهل الفكر والرأى.

وكيف؟ وهى تعيش بأميتها وبمستواها منقطعة عن هذا كله بعيدة منه لا تحسه في كثير ولا قليل، ولكن زحدا لا يستطيع أن ينكر أن بيئاتنا الشعبية في القرى وفى المدن تأثرت ولا تزال تقع تحت تأثير قصص أبى زيد الهلالى وألف ليلة وليلة وعنترة والظاهر بيبرس وسيف ابن ذى يزن ونوادر جحا وأمثال ابن عروس وأشعاره، ثم ما يروى من كرامات السيد البدوى والسيد إبراهيم الدسوقى وشطحات المتصوفة والدراويش. فمن هذا كله تغذت عقلية الشعب، وعلى هذا كله تربت شخصيته وتأثرت به إلى حد كبير.

فالمؤرخون والباحثون حين يتناولون الأدب الرفيع على أنه صورة كاملة لحياة الأمة، ويأخذون فى دراساتهم بهذه القضية على إطلاقها وعمومها، إنما يسرفون على الحقيقة ويحملون القضية ما لا تحتمل. لأن ذلك الأدب مهما بالغنا فى تقدير قيمته وأثره فلن نجده إلا صورة لتفكير طبقة خاصة فى الأمة وهى طبقة لها امتيازاتها وتقاليدها، فإذا أرادوا حقا أن يروا الصورة الكاملة وأن يرسلوا القضية على عمومها وإطلاقها، فليضموا إلى تقديرهم التراث الشعبى، بل أنه لأصدق دلالة على توضيح شخصية أهله وتمثيل نفسيتهم، لأنه وحى الفطرة، والهام الغريزة، وفيه تتجلى العواطف واضحة صريحة لا يحجبها

تزوير، ولا يخفيها ذلك الاصطناع والتأنق الذى يكون فى أدب الخاصة.

ولقد اهتم الباحثون فى كثير من الأمم بدراسة التراث الشعبى على اختلاف ألوانه واتجاهاته. اهتموا بدراسته على أنه حلقة من حلقات التطور التاريخى والتقليد الأدبى والفنى، وعلى أنه صورة صادقة للأدب القومى تتجلى فيها الآلام والآمال التى تسيطر على نفوس العناصر الشعبية، ثم على أنه ناحية من التفكير فيها جمال حياة، وفيها متاع ولذة، ومن العجيب أن الباحثين والمفكرين من المستشرقين قد عنوا بتراثنا الشعبى فى بعض نواحيه، وكتبوا فى ذلك بعض الأبحاث فى حدود ما يملكون من الأداء لذلك. وما يصل إليه فهمهم وإدراكهم لمظاهر بيئة هم طارئون عليها عابرون بها، ولكنا مع هذا كله مازلنا ننظر إلى ذلك التراث نظرة شذراء. ننظر إليه على أنه شىء تافه لا يستحق العناية والاهتمام، حتى النواحى التاريخية الصحيحة من هذا التراث لم يعن أحد بتحقيقها، ولا يزال شبابنا المثقف يجهلها كل الجهل، فنجدهم لا يعتقدون فى أبى زيد وجحا وغيرهما من الشخصيات الشعبية ألا أنهم حديث خرافة وكلام فارغ لا أصل له...

وأى شىء فى هذا؟

إن أدبنا المصرى نفسه لا يزال مجهولا مطمورا فى مخطوطاته، ولا تزال آثاره مبعثرة فى مكاتب العالم، ولا تزال جامعاتنا ومدارسنا لا تعرف منه إلا شذرات مبتورة وقطعا ممزقة، ولا يزال شبابنا يجد ويكد فى ارتياد مجاهل الأدب، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم شيئا من المشقة فى كشف مجاهل الأدب الجاهلى، ويبدى ويعيد فى كلام أصبحت النفوس تضيق به، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم شيئا من المشقة فى كشف مجاهل الأدب المصرى الذى هو فيض عواطفهم وصورة من حياتهم وطبيعتهم وبيئتهم.

* * *

ومنذ أعوام عنيت بدراسة الأدب المصرى على صورة واسعة شاملة، فعكفت على مخطوطاته فى دار الكتب المصرية أتقصاها وأتفحصها، وكان أن وقعت فى بحثى على هذه الناحية الشعبية فاستوقفتنى وقفة طويلة وشغفنى أن أستوفى بالبحث عناصر هذه الناحية التى أثرت فى شخصية هذا الشعب كما قلت إلى حد كبير، ثم رأيت أن أرودها بالدراسة وهى الناحية المجهولة المطمورة التى انصرفت عنها أنظار الباحثين على ما لها من الخطورة البالغة والقيمة العظيمة، ولقد استوفيت هذه الناحية دراسة وبحثا وتنقيبا، ولكن مشاغل الحياة الصحفية

جرفتني في تيارها، ولم تترك لى أية فرصة للكتابة فى هذه الناحية، ولم تمكنى من أن أتقدم بنتيجة بحثى ودراستى للقارىء، ثم كان أن كنت أحرر فى مجلة أدبية كبيرة وفى يوم تلقت المجلة من أحد القراء سؤالا عن حقيقة أبى زيد الهلالى والقصص الذى يحكى عنه، فهل هو حقيقة أم خرافة وتلفيق خيال، وجلست أجيب عن هذا السؤال فامتد بى الكلام حتى كان هذا البحث الذى أقدمه اليوم إلى القراء والذى يتضمنه هذا الكتاب، وأنى لأذكر أن سؤال ذلك السائل ظل ينتظر منى الجواب إلى اليوم.

فى هذا البحث، بذلت جهد الطاقة وقدر الإمكان فى تقصى الثابت فى التاريخ، والموضوع فى القصص، والشائع عند الناس، وعنيت أن أنهج فيه نهجا حديثا يقوم على التمحيص والتحقيق، والاستنتاج والمقارنة، والتحليل والتعليل، وأردت أن أقدم من هذا كله صورة للقارىء فيها إشباع للعقل، وامتاع للقلب، ومؤانسة للروح، وأن أكشف عن ناحية لها بتاريخنا صلة وثيقة، وفى ثقافة الشعب وعقليته أثر كبير. وقد تناولت فى هذا البحث تاريخ بنى هلال وسليم وقصصهم وسير أبطالهم، ولكنى عنونته باسم «أبو زيد الهلالى» لأنه أظهر بطل فى القصة، ولأن القصة قد عرفت وذاعت فى البيئات الشعبية باسم هذا البطل

الكبير، وأنى لأقدم المعذرة للقراء إذا ما رأوا إجمالا فى بعض نواحى البحث، فقد اضطرنى إلى ذلك ضيق المقام، وفى الحق أن ميدان القصة الهلالية كان على امتداد واسع من الأرض، فكانوا فى نجد، ثم نقلهم الخليفة العزيز إلى صعيد مصر، ثم دخلوا برقة وطرابلس وتونس إلى آخر ما هناك من الأمصار، وكان لهم فى كل مكان حياة ومواقع، وحروب ومعارك، وأدب وملاحم، وكل منها يحتاج إلى بحث ودراسة.

الفصل الأول

بنو هلال وسليم

هؤلاء قوم ذكرهم فى القص أكبر من ذكرهم فى التاريخ، وحديثهم فى السمر أمتع وأروع من حديثهم الصحيح. العامة يجلون قدرهم ويرتفعون بمقدارهم، وكأنى بالخاصة قد ترفعوا عنهم فلم يحفلوا بخبرهم ولم يهتموا بتاريخهم. حتى القدماء من المؤرخين قد مروا بهم مر الكرام، ونظروا إليهم فى غير احترام، ولولا العلامة ابن خلدون الذى تتبع أنسابهم وتابع سيرهم وأكبر من شأنهم لما وقفنا لهم على خبر يذكر، ولا وقعنا لهم على تاريخ يؤثر.

هذا فى القديم. وهذا فى الحديث أيضا، فأنك لا تجد فى العربية باحثا قد اهتم بتاريخ هؤلاء القوم، أو عنى بدراسة القصص الذى يحكى عنهم والأسمار التى تتصل بهم، على حين نجد المستشرقين كعادتهم قد تقحموه بالدرس وتناولوه بالبحث. حتى كتبوا فى ذلك الكتب الوافية والفصول الضافية. وتقول دائرة المعارف الأسلامية أن باسيه وهارتمان كانا أول بحث هذا القصص - أى قصص بنى هلال - بحثا قوامه العلم والفهم،

وأن بل كتب بعد ذلك كتابا قيما فى هذا الموضوع عنوانه (الجازية) شقيقة سلطانهم الحسن ابن سرحان. وللباحثين الفرنسيين عناية ظاهرة بتاريخ هؤلاء القوم وتاريخ البربر الذين كانوا يقطنون شمال أفريقية، وهى عناية ترجع إلى صلة فرنسا الاستعمارية بتلك البلاد، وناحية من البحث التاريخى، دفعت إليها وجهة سياسية، ورغبة فى المعرفة للسيادة والحكم. أما المستشرقون الألمان فأنهم درسوا هذا القصص دراسة هدفها تحقيق مصادره، وتتسبق رواياته، وتحتفظ دار الكتب فى برلين بين فهارسها العربية بملخص قيم لهذا القصص يقوم على التحقيق والتنسيق.

أوليتهم فى التاريخ:

وخبر بنى هلال وسليم فى التاريخ خبر قديم، ونسبهم فى العرب نسب صحيح؛ فهم من بطون مضر، وبطون مضر كثيرة متعددة كانت كلها تعيش فى الجاهلية على البداوة والخشونة، وتطلب النجعة حيث مساقط الماء ومنابت العشب، فلما جاء الإسلام دخل كثيرون منهم حظيرته وحملوا رايته وغلبوا الأمم على أمورهم وملكوا الأقطار والأمصار، وتمت لهم السيادة أيام بنى أمية فى الشام وبنى العباس فى العراق، ثم بنى أمية مرة

أخرى فى الأندلس، فانقسموا فى الدنيا وافترقوا على الثغور البعيدة كما يقول ابن خلدون ونبتت أجيالهم فى ماء النعيم، واستطابوا خفض العيش وطال نومهم فى ظل الترف والسلم ونسوا عهد البادية، وانفلتت من أيديهم الملكة التى نالوا بها الملك، واتخذوا البطانة من موالى الأعجام وصناع الدولة، فاستوت الحامية بالرعية والأصيل بالدخيل، واختلط عرب الفتح بالهمج، ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها، ولا تذكروا عهد الأنساب لدروسها، فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم ومن بعدهم، سنة الله التى خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

قبائلهم فى نجد:

وقد كانت ثمة بطون من مضر بقوا على حالهم الأولى، ولزموا نهجهم القديم، فظلوا يضربون فى الوديان ويتنقلون بين الشعاب ويستظلون بالحلل والوبر، وقد كانت هلال وسليم من هذه البطون، وكانت محلاتهم من بعد الحجاز بنجد. فبنو سليم مما يلى المدينة، وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف. ويقول الألوسى فى تاريخ نجد: «ان فى قرى الوادى بنجد بقعة تسمى بالهلالية وأن ناحية القصيم كانت تحت امارة رجل من آل سليم». فلعل ذلك مما بقى من آثار القوم هناك. ونظرا لضيق

الرزق فى تلك البلاد وقلة الكفاية فى الأقوات، كان بنو هلال وسليم يطوفون رحلة الشتاء والصيف بأطراف العراق، فيغيرون على الضواحى ويفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق، كثيرا ما كان بنو سليم ينقضون على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة حتى أفزعوا دار الخلافة وأضجروا القائمين بالأمر وغضوا من سمعة الدولة، وكثيرا ما كتب العباسيون الكتائب وحشدوا الجنود للإيقاع بهم وصون الحاج من عيثهم وعبثهم، ولكن كل ذلك لم يفل فى عزمهم ولم يحد من طغيانهم، بل زاد خطرهم واستفحل شرهم. إذا ظهر القرامطة بدعوتهم الهدامة، وصاروا يغيرون على أطراف مصر والشام والحجاز حتى دخلوا مكة ونهبوا الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ووضعوا السيف فى الحجاج والزوار وفرضوا عليهم الفروض وأخذوا منها الاتاوات، ويقول ابن خلدون: أن بنى سليم والكثير من ربيعة ابن عامر قد تحيزوا إلى هؤلاء القرامطة عند ظهورهم وصاروا جندا لهم بالبحرين وعمان، فكانوا يعينونهم فى حروبهم، ويظاهرونهم فى إفسادهم. ثم يقول ابن خلدون: وكان القرأمطة قد تغلبوا على الشام والشام يومئذ تابعة لخلافة الفاطميين فانتزعها العزيز منهم وردهم إلى قرارهم بالبحرين، ونقل أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم فأنزلهم الصعيد

فى العدوة الشرقية تجاه البحر الأحمر، فأقاموا هناك وكانت لهم أضرار بالبلاد.

قصة الجازية والشريف:

ثم يقول ابن خلدون: ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم إلى افريقية طرق فى الخبر، فهم يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبى الفتوح، وأنه أصهر إلى الحسن ابن سرحان فى أخته الجازية فأنكحه اياها وولدت منه ولدا اسمه محمد، وأنه قد حدث بينهم وبين هذا الشريف مغاضبة وفتنة، فأجمعوا أمرهم على الرحلة عن نجد إلى أفريقية واحتالوا عليه فى استرجاع هذه الجازية، فطلبت زوجها فى زيارة أهلها، فأزارها اياهم وخرج بها إلى حللهم، فارتحلوا بها وبه وكتموا رحلتها عنه، وموهوا عليه بأنهم سيبلا كرون به إلى الصيد والقنص ثم يروحون به إلى بيوتهم، فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع مكة وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم، فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دخيل، وأنها بعد ذلك كلفت به كلفه بها إلى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يغض من خبر قيس مع ليلى وكثير مع عزة، ويروون كثيرا من أشعارهما محكمة

المباني متقنة الأطراف وفيها المطبوع والمصنوع والمنحول، وهم يتفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل لتواترها بينهم، وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن هاشم، وأبو الفتوح هذا هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم إذ بعث إليه بنو الجراح من أمراء طيء بالشام فوصل إلى أحيائهم وبايع له كافة العرب، ثم غلبتهم عساكر الحاكم فرجع إلى مكة وأظهر الطاعة للفاطميين، ومات سنة ثلاثين وأربعمائة، فتولى من بعده ابنه محمد الذي يزعم الهلاليون أنه من الجازية.[1]

ولقد ألمح ابن خلدون إلى هذا القصة من قبل فقال وهو يتحدث عن دولة الهواشم بمكة: ثم توفي الأمير أبو الفتوح سنة ثلاثين وأربعمائة، وولى بعد امارة مكة ابنة شكر، وشكر هذا هو الذي يزعم بنو هلال أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأثبج منهم، وهو خبر مشهور بينهم في أقاصيصهم وحكاياتهم التي يتناقلونها ويطرزونها بأشعار من جنس لغتهم، وقد اهتم ابن خلدون فأورد في المقدمة جملة من تلك الأشعار التي قالوها

(١) ج ٦ ص ١٧ وما بعدها.

فيما كان بينهم وبين الشريف ، والتى قالها الشريف أو قيلت على لسانه فى البكاء على الجازية والجزع لفراقها.

مناقشة ابن خلدون:

والظاهر أن المؤرخ الكبير إنما ذكر هذه القصة على أنها مما يحكى ويقال لا على أنها حقيقة تاريخية، أو هو على الأقل لم يعن بتمحيصها والبحث فى صدق وقائعها، والواقع أن هذه القصة ليست من الغرابة والإحالة بحيث يردها العقل، ولكن المؤرخين لم يأتوا بما يدعمها فى النقل، فابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أوردها وأثبتها على علتها، وقد كتب الشيخ حسن العطار أمام هذه القصة بهامش النسخة البولاقية ما نصه: قصة أبى زيد التى تحكى فى قهاوى مصر أصلها هذه الواقعة كما أشار لذلك المؤلف، وكثيرا ما كنت أتطلب لها أصلا فى التاريخ فلم أجده إلا فى هذا المحل.

ولقد كنا فى حل من أن نقبل هذه القصة كما رواها ابن خلدون، لأنها كما قلنا لا يحيلها العقل، لأنها تتصل بأشخاص لهم خبر صحيح. فشكر والجازية والحسن بن سرحان وامارة شكر على مكه وخروج العرب من نجد، كل هذه العناصر ثابتة صحيحة، ولكن ابن خلدون وهو المؤرخ الوحيد لهذا القصة قد

رواها بلغة تنم عن ضعفها، وتدل على عدم ثقته بها واطمئنانه إليها، فتجده يقول: ويزعمون، ويحكون فى قصصهم. ثم ان ابن خلدون قد ذكر من قبل أن خروج العرب من نجد إنما كان على عهد العزيز، وشكر الذى تشير إليه قصتهم إنما كان على عهد المستنصر، أى بعد أن مضت خلافة العزيز والحاكم والظاهر، وأظهر من هذا فى التناقض أن ينص ابن خلدون على أن العزيز هو الذى استقدم بنى هلال وبنى سليم إلى مصر ليبعدهم عن مشايعة القرامطة فى إغارتهم على مصر، ثم يقول فى القصة أنهم أجمعوا الرحلة عن نجد لمغاضبة وفتنة بينهم وبين شكر ثم إن ابن خلدون يذكر أن هؤلاء العرب قد فارقوا بلادهم إلى مصر ثم انتقلوا إلى افريقية، ولكن القصة تدل على أنهم فارقوها إلى افريقية مباشرة ولم تشر إلى نزولهم مصر. وأخيرا تقول القصة ان شكرا قد أعقب ولدا اسمه أحمد من الجازية، وأنه قد أخذ الإمارة من بعده، ولكن ابن حزم يقول ان شكرا هذا لم يولد له، وأن أمر مكة صار من بعده إلى عبد كان له، بل أن ابن خلدون نفسه يذكر فى الكلام على دولة الهواشم أن الذى تولى من بعد شكر سنة أربع وخمسين وأربعمائة إنما هو محمد بن جعفر وقد خطب للمستنصر العبيدى. فكل هذا الذى ذكرناه يحملنا على أن نقف من القصة موقف المستريب، وأن ننظر إليها نظرة

المتبصر.

على إننا بعد هذا كله نرى أن هذه القصة قد تكون صحيحة فى أصلها وإن كان قد وقع بعض الخلط فى تفصيلها، خاصة وأن القوم كانوا يحفظونها بالرواية ويتناقلونها بالحكاية حتى طال عليها الأمد وامتد بها العهد، وذلك مظنة الزيادة والنقص والتحريف والتخريف، وليس ما يمنع أن يكون العرب لما أغراهم العزيز بذهبه قد اصطنعوا المغاضبة مع الذين كانوا تحت امرته من الهواشم، ولم يسمح لهم شرفهم بترك ابنتهم الجازية فى بلاد سيرحلون عنها، فلما جاء القوم من بعد وتناولوا القصة بالحكاية بعد أن نزلوا مصر ثم رحلوا عنها إلى افريقية ذكروا ولده الشريف باسم شكر الذى كان موجودا لذلك العهد، وعلى هذا كثر ذكره فى قصصهم وأشعارهم التى سنتناولها بالبحث فيما بعد.

نزولهم مصر وخروجهم منها:

نزل بنو هلال وبنو سليم أرض مصر فى كثير من بطونهم وأتباعهم ـ وقد اتخذوا منازلهم على ما قدره لهم العزيز الفاطمى بالصعيد فى حدود العدوة الشرقية للنيل، والظاهر أنهم قد انتشروا بعد ذلك فى كثير من نواحى الصعيد حتى قال

---

(١) صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٤٥.

الحمداني: وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها [1]، ويقول المقريزى فى (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب): وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب، وبأخميم منهم بنو قرة، وبساقية قلته بنو عمرو. وفى بنى هلال عدة بطون: منهم بنو رفاعة وبنو صجير وبنو عزيز، وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة.

ولقد كا شأن هؤلاء العرب فى مصر كما كان شأنهم فى نجد، يعيشون على البداوة والخشونة ويجرون على طبيعتهم فى السلب والنهب والاغارة، وجميع المؤرخين لا يذكرونهم فى مصر إلا بهذا المعنى ولا يقفون بهم إلا عند هذا النعت، حتى أن ابن خلدون الذى كتب تاريخهم وأشاد بذكرهم يقول: «وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم». بل لقد خرج بعضهم على بعض ونشب الخصام بين رياح وزغبة فيهم، فتقارعوا على المحلات والمنازل، وكانوا كالنار تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله، وكأن العزيز إذ نقلهم إلى مصر اتقاء لشرهم إنما جلب على الدولة شرا أكبر وخطرا أعظم، وما ارتاحت البلاد والدولة منهم حتى خرجوا فى شأنهم إلى افريقيا، وقد كانت لهم فى هذا رحلتان، الأولى للريادة، أو كما نقول للإستطلاع، والثانية للفتح والحرب والإقامة، وهو ما سيأتى تفصيلة.

السبب فى خروجهم:

وسبب خروجهم هذا أن المعز بن باديس ملك صنهاجة والقيروان من قبل الخليفة الفاطمى كان قد انحرف عن مذهب الشيعة إلى أهل السنة، وكبابه فرسه على حد تعبير ابن خلدون، فدعا مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر، وسمعته العامة فثاروا بالشيعة وأمعنوا فيهم بالقتل والسلب حتى قتلوا دعاتهم وهدموا بيوتهم، وجاء الخبر بذلك إلى الخليفة الفاطمى فغضب وتغير، وكتب وزيره أبو القاسم الجرجانى إلى المعز يحذره المغبة ويتهدده بالقتل، فرد عليه المعز بالتعريض وأغلظ فى الجواب، وزاد فى عناده فقطع الدعاء للفاطميين سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر حتى لقد أحرق بنوده ومحا اسمه من الطرز والسكة، وغير من الآذان حى على خير العمل، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء بغداد وحظى منه بالتقليد والخلع، وقرىء كتابه على الناس بجامع القيروان، ونشرت الرايات السود التى هى شعار العباسيين. ثم أن المستنصر كان قد استوزر محمد الحسن بن على اليازورى ولم يكن من أهل الوزارة، وإنما أصله من قرى فلسطين، وكان أبوه فلاحا بها وكان هو من أهل الفلاحة، فاستخف به المعز بن باديس ولم يكتب إليه كما كان يكتب إلى الوزراء من قبله، فعظم ذلك على اليازورى وحز فى

نفسه فأكثر من الوقيعة فى المعز عند المستنصر وأغراه بحربه، ولما كانت الدولة لا تأمن على جيوشها فى تلك المفاوز القاصية فقد أشار عليه أن يرميه بأولئك العرب الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فأن صدق الظن فى ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمادا للدولة وعماله بتلك الربوع النائية وارتفع عدواتهم من ساحة الخلافة فى صعيد مصر، وأمر العرب البادية على أى حال أهون من أمر صنهاجة الملوك، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها.

رحلتهم الأولى إلى افريقية:

وكان من الطبيعى أن يستمع المستنصر لمشورة وزيره، ولا بد أنه قد وجد فى هذه المشورة مخرجا يحتال له، ولعله - إن صحت الفراسة فى العرب - يشفى غيطه من ابن باديس الذى عدا طوره وشب عن طوقه وانتكس بأمر الدعوة والولاية، وسرعان ما أرسل الخليفة وزيره إلى أحياء أولئك العرب بالصعيد، وكان همه الأول أن يوفق بينهم، وأزال الخلاف الواقع بين رياح وزغبة ، ثم فاوضهم فى الغرض المهم وأغراهم بما فى تلك البلاد من الخيرات والثمار والزورع، وكتب لهم بالولاية على كل ما يفتحونه من بلاد المعز، وأعانهم على السفر فأغدق

لأمرائهم فى العطاء ووصل عامتهم بدينار وبعير لكل واحد منهم ووعدهم بالمدد والعدد، فجمع العرب جموعهم ووحدوا صفوفهم وفزعوا للأمر الذى انتدبوا له فى حشد جرار وجيش لجب، وكتب اليازورى إلى المعز بذلك يقول: أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وحملنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا(١).

ولقد كان فى هذه الرحلة كثير من بطون هلال وسليم. منهم رياح والأثبج وزغبة ودياب ولهب وعرف ومرادس وبنو ثور وبنو عطية، وكان معهم كثير من فزارة وأشجع من غطفان وجشم من هوزان وهلال بن مرة والمفضل من بطون اليمنية وطرود من فهم بن قيس وغيرهم من البطون والأفخاذ والعشائر، ولكنهم كانوا جميعا مندرجين فى هلال وخاصة فى الأثبج منهم، لأن الرياسة كانت لهم والإمارة فيهم، وكان على رأس الراحلين جملة من الرجال المذكورين بالبطولة والشجاعة والمتقلدين للرياسة والإمارة، منهم الحسن بن سرحان وأخوه بدر، وسلامة بن رزق المشهور عند العامة بأبى زيد الهلالى، ودياب بن غانم والفضل بن ناهض وزيد العجاج بن فاضل وزيد بن زيدان وموسى بن يحيى وشامة بن أحمير وأخوه صلصيل ومليحان بن عباس وفارس بن أبى الغيث وأخوه عامر والفضل بن على ويحيى بن

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٤ و ١٥٩ وابن الأثير جـ ٦ ص ٢٣٥.

مؤنس ولكهم أبناء عمومة يجمعهم النسب المشترك ويؤلف بينهم الغرض المتفق، وهم يذكرون في القصص الذى يحكى، وقد يقع في أسمائهم من التحريف بقدر ما يلصق بهم من التخريف.

وخبر هذه الرحلة يذكره المؤرخون غالبا بعنوان:

دخول العرب إلى افريقية. وهم يختلفون فى تحديد تلك البقعة من الأرض، فالبكرى يقول: أن افريقية تحد شرقا ببرقة وغربا بطنجة، وهى تمتد من الشمال إلى الجنوب من شواطىء بحر الروم إلى الرمال التى فى أول السودان. ويقول الأصطخرى: أن افريقية تقع ما بين برقة وتاهرت. ويقول أبو الفدا. أن افريقية تبتدىء من الحد الشرقى لأقاليم بجاية وتنتهى عند برقة، وأن بجاية وبونه وقفصة تقع خارج افريقية. ولكن ابن خلدون يضيق من حدود هذا الأقاليم ويطلق هذا الاسم على الجزء الأوسط والشمالى من بلاد تونس ويقول أنه يقابل طرابلس وبلاد الجريد وأقاليم قسطنطينة، ومهما يكن من اختلافهم فى تحديد ذلك الإقليم فإن العرب قد دخلوه من قبل، وقد تم فتح تلك البلاد على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة، وقد وفد عليها كثير من القبائل العربية وكان يستوطنها لذلك العهد بنو قرة وهى قبيلة تنسب فى هلال بن عامر، أى أنهم أيضا من الهلاليين ومن أعرقهم فى النسب [1].

(١) راجع البيان والإعراب للمقريزى ص ٣٢و ٣٣.

بنو قرة فى برقة:

ولقد سبق بنو قرة اخوانهم فى الدخول إلى افريقية، ولهم فى ذلك أيضا أخبار وأحداث رهيبة، وذلك أن الحاكم الفاطمى انتدبهم للسير مع يحيى بن علي الأندلسى لنصرته على صنهاجة فخرجوا معه ولكنهم خذلوه وتخلوا عنه، ثم عادوا إلى برقة واستوطنوها، فأرسل إليهم الحاكم فامتنعوا فخدعهم ببذل الأمان لهم، فلما حضر وفدهم إلى الاسكندرية قتل عن آخره، وقد أمعن الحاكم فى الاستبداد بهم والتضييق عليهم، ثم كانت ثورة أبى ركوة وخروجه على الحاكم فانضم إليه بنو قرة وظاهروه حتى كاد يتم له النصر على الفاطميين، ولكنهم عادوا فخذولوه ومكنوا الحاكم منه. وبهذا صلح الأمر بينهم وبين الحاكم، وهدرت جنايتهم القديمة ولكنهم لم يسكنوا على هذا، بل أنهم فى سنة اثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية مرسلة من باديس بن المنصور ملك صنهاجة إلى مصر فنهبوها ثم اقتحموا برقة وغلبوا العالم عليها، ولم يزل هذا شأنهم حتى نزل عليهم اخوانهم من بنى هلال فتلقوهم بالقبول واندمجوا فيهم، ويقال إن شيخهم ماضى بن مقرب قد أصهر إلى الحسن بن سرحان فى الجازية من بعد شكر، وتعتبر غزوة بنى قرة لأفريقية الغزوة الأولى، وغزوة بنى هلال الغزوة الثانية، وتقول دائرة المعارف

الاسلامية إن الغزوة الثانية هى الغزوة التى يحكى عنها ذلك القصص الشائع بين الناس وتلك الأشعار والملاحم، وما كان يقع من مؤامرات وإغارات، وتلك المعارك العنيفة المريرة التى جرت بين أولئك العرب وجموع البربر بقيادة الزناتى خليفة.

الرحلة الثانية:

ولقد كانت برقة عندما نزلها بنو هلال أرضا عامرة بالخيرات ناضرة بالزروع والثمار، وقد استطاع العرب أن يسيطروا على ذلك الإقليم من جميع أطرافه ونواحيه، وقد أمعنوا فى التخريب والنهب كعادتهم ولجوا فى الفساد على طبيعتهم، وكأنهم وجدوا العيش أطيب مما كان فى صعيد مصر، وصار لهم قسط فى الحرية أوفر مما كانوا عليه فى ساحة الخلا فة، فكتبوا إلى ما بقى من اخوانهم فى مصر وحسنوا لهم الرحلة إليهم واللحاق بهم، فرحلوا بعد أن أجازهم اليازورى واقتضاهم عن كل شخص ضعف ما أعطاهم فى الرحلة الأولى، وما زالوا يغذون السير إلى أن وافوا إخوانهم فى برقة.

فاضت جموع الهلاليين واخوانهم على افريقية فى سنة أربعين وأربعمائة للهجرة كالجراد المنتشر على حد ما نعتهم به المؤرخون، فكانوا زهاء الأربعمائة ألف أو يزيدون، وكلهم طامع فى الغنم نازع إلى الفتح، إذ كتب لهم الخليفة الفاطمى بالولاية

على افريقية واقتسام أقاليمها، وترك لهم تحقيق هذا بسيوفهم وتوطيده برماحهم، وكأنى بالقوم قد خمرتهم هذه الثقة وغمرتهم روح العزة فاندفعوا فى طريقهم كالسيل الجارف، لا تصدهم قوة ولا تردهم عقبة ولا يعصم من طغيانهم حصن.

وكانت برقة فى طريقهم منزل ضيافة لهم على إخوانهم السابقين من بنى قرة، والذين رحلوا منهم الرحلة الأولى كما أشرنا من قبل، وقد غمرت جموعهم جميع ولاية برقة، واحتشدوا فى المدينة الحمراء وأجدابية أسمرا وسرت وغيرها من المدن العامرة، وطابت لهم خيراتها وأرزاقها، ثم خلفوا عليها قبيلة لهب من بنى سليم وأحلافها رواحة ونصرة وعميرة، وانطلقت بطون هلال وقبائل دياب وعرف وزغبة فى طريقهم لا يبقون على شىء.

زايل العرب برقة ومضوا فى طريقهم يفتحون البلاد ويجتاحون العباد ويستعمرون الأقاليم حتى وصلوا إلى أفريقية فى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، ثم تدفقت قبائل رياح والأثبج وبنى عدى على قلب أفريقية قصدا إلى القيروان. يقول ابن الأثير: فلما رأى مؤنس بن يحيى المرادى أمير رياح قصدهم هذا قال لهم: ليست المبادرة إلى القيروان عندى برأى. فقالوا اذن كيف تحب أن نصنع؟ فأخذ بساطا فبسطه على الأرض ثم قال لهم: من فيكم يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى

عليه؟ فقالوا كلهم لا نقدر على ذلك. فقال: هكذا القيروان. فخذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ ولسنا نقطع برأى دونك، وعلى هذا كانت خطتهم فى فتح البلاد ودخول القيروان من بعد [1].

علاقاتهم للمعز بن باديس:

ولما علم المعز بن باديس بتوغل القوم وقدومهم لمنازلته، وبلغه الخبر عن مكانة مؤنس بن يحى فيهم وسيره فى طليعتهم، أسرع إلى استمالة هذا الأمير وكتب إليه يستدعيه وأغدق عليه العطايا والهبات، وكأن المعز قد أراد بهذا أن يسلك طريق الحيلة وأن يغلب القوم بالاستمالة والتفريق بينهم، ولكن هذا لم يجده شيئا، فإن القبائل الأخرى من هلال وإخوانهم قد اندفعوا فى قصدهم ولم يجزوا المعز بما فعل من الإحسان كما يقول بن الأثير، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وحاصروا المدن، وسرح إليهم المعز الجيوش المتتابعة فأوقعوا بهم الهزائم المنكرة، فحينئذ أدرك الخطر، ونهض للأمر بنفسه، وخرج لهم فى جيش جرار من البربر وقبائل زناتة وصنهاجة بعد أن تألفهم والعرب الذين تبقوا من أيام الفتح الأول، فكان له من ذلك ثلاثون ألف فارس ومثلهم من الراجلين، والتقى الفريقان

---

(١) راجع ابن الأثير ص ٢٢١ وما بعدها.

قريبا من جبل «حيدران» بالجنوب الشرقى على الطريق المتسع بين قابس والقيروان، وكانت عدة العرب ثلاثة الاف فارس ، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم، فقال لهم مؤنس ابن يحيى: ما هذا يوم فرار. فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكداغانات والمغافرة. فقال: فى أعينهم. فسمى ذلك اليوم بيوم العين.

التقى الفريقان ووقعت الواقعة قاسية عنيفة ذهب فيها كثير من فرسان الفريقين ورجالاتهم، ولكن العرب الفاتحين صدقوا فى موقفهم. وانحاز إليهم عرب الفتح الأوائل استجابة للعصبية القديمة، وانخذلت زناتة وصنهاجة عن المعز فحاول الرجل أن يثبت فى جنده الخاص وعبيده، وكان عددهم نحو عشرين ألفا أو يزيدون، ولكن القتل كثر فيهم واستمرت الهزيمة عليهم، فأدرك المعز أن الصبر لا يجدى وأن للغزاة شراسة لا يحتملها جنده، وحدة لا يردها عدده، فرجع إلى القيروان، وقدغنم العرب فى هذه الموقعة كثيرا من المغانم واستولوا على كثير من المال والمتاع والفساطيط والرايات.

على أن المعز لم يهن ولم يستسلم بإزاء هذه النكبة القاصمة، فحاول محاولة أخرى لانقاذ ملكه من أولئك الغزاة الشراسين، فجمع جموعه مرة ثانية وخرج مكبرا فى يوم عيد النحر من تلك

السنة بجيش قوامه عشرون ألف فارس وهجم على العرب وهم في صلاة العيد وأعمل فيهم القتل والطعن، فسارعوا إلى ركوب خيلهم وصدقوا فى الوقوف له، وكروا عليه كرة عنيفة فانخذلت صنهاجة أمامهم، فعاد المعز إلى جمع جموعه وخرج بنفسه فى جيش كبير من صنهاجة وزناتة وتصدى للعرب عند منازلهم قريبا من جبل «حيدران» فشب القتال بينهم واشتد الطعن والنزال ووقف العرب على عادتهم موقف صدق وصبر، فانهزمت صنهاجة أمامهم بعد أن قتل منها ثلاثة الاف وثلثمائة، ثم تبعتها زناتة، فثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما ووقف موقفا مشهودا، ولكن العرب شددوا عليه، ففر أمامهم وانخذل إلى المنصورية وشرع فى تحصينها، فأحاطها بسور شاهق امتد به حتى أوصله إلى القيروان فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة، حتى يعصم نفسه من أذى هؤلاء العرب ويضع حدا لتحرشهم بملكه[1].

دخولهم القيروان:

أتم المعز بناء السور، وهيهات أن يرد هؤلاء الاعراب بناء أو يعصم من طغيانهم سور، فقد تعقبوا المعز فى قرارة ملكة

---

(١) ابن الأثير

واندفعوا من ورائه يخرجون من البلاد فيما بينهم سنة ست وأربعين وأربعمائة، فكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرادس بن رياح باجة وما بعدها، وأخذوا بهد ذلك فى محاصرة القيروان نفسها، فمنعوا عنها كل صلة بالخارج، وشددوا على القرى والضواحى، ووقع الأذى والضرر بالناس، وطال أمد الحصار وضجرت الرعية من طوله، بل لقد استطاع الغزاة أن يقتحموا الأسوار وأن ينازلوا المعز فى داخل القيروان، ففر السكان إلى تونس وجلوا عن منازلهم وأملاكهم نجاة بأنفسهم من بطش القوم وفتكهم، وأدرك المعز أنه لا قبل له بحماية ملكة من هؤلاء الطغاه الفاتحين، ففاوضهم على الصلح وتخلى لهم عن القيروان وأمر السكان بإخلائها، ونزح فى أهله وحشمه سنة تسع وأربعين وأربعمائة مع خفيرة منهم مؤنس بن يحيى (١) أمير رياح الذى ذكرنا خبره من قبل، فنزل بالمهدية على ابنه الأكبر الأمير تميم عامله على المدينة، ويعقب ابن خلدون على هذه الحادثة فيقول: ودخل العرب القيروان فانتهبوها، وأقام المعز بالمهدية وتنزى البوار فى البلاد (٢).

ولا شك أن امتلاك العرب للقيروان قد مكنهم من ناصية البلاد، ولاشك أن هذا الغنم الكبير قد صيرها تجاه وضع جديد،

(١) ويذكره ابن خلدون أيضا باسم يونس.

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٩.

فأعادوا اقتسام البلاد فيما بينهم، وغيروا ما كانوا أجروه من القسمة من قبل، وقد كان من جراء هذا التقسيم أن فازت هلال وبطونها بنصيب الأسد، فكان لها من تونس إلى الغرب، وكان لسليم وقبائلها الشرق، وقد ظل الغرب مسرحا للحوادث والوقائع التى تتابعت فيما بعد بين هؤلاء الأعراب وبين القائمين بالأمر على تلك البلاد.

تحطيم حصن القيروان العظيم:

ولكن كيف دخل الهلاليون القيروان؟ وكيف اقتحموا ذلك السور المتين الذى ضربه عليها المعز؟ وكيف استطاعوا أن يحطموا مقاومة العدو داخل القيروان وخارجها؟ إن الرواية التاريخية تمر بذلك مرا عابرا لا يعدو الإفادة باقتحام السور بعد طول الحصار، ولكن القصة قد عنيت بتفصيل ذلك وصورته تصويرا رائعا بارعا يطابق ما يجرى فى أساليب الحروب الحديثة من ضروب الحيلة وفنون التجسس، إذ تفيد بأن الهلاليين أنفسهم قد ضجروا من طول الحصار وثقلت تكاليفه عليهم، ورأوا أن المدينة منيعة التحصين أمامهم، وأن أنصارها داخلها قد طال بهم الانتظار ولكن كل هذا لم يفت فى عضد القوم بل زاد فى رغبة زعيمهم أبى زيد الهلالى واصراره على

اقتحام السور، وتحطيم مقاومة العدو مهما يكلفه الأمر، وفى ذلك يقول البيت السائر:

ولابد من لطمـــــة على باب تونس

ولو حـــال دونى ودونهـــا العـــقـــبـــان

وقد حاول هذا الرجل الداهية أن يمهد لسيوف قومه بالحيلة، وقد هداه تفكيره إلى ابتداع حيلة طريفة كان هو بطلها، وكانت المرأة وسيلتها، إذ خرج سرب من العذارى الجميلات ومعهن عبد أسود لم يكن إلا أبو زيد الهلالى نفسه متنكرا، ثم قصدن إلى سور المدينة فى موكب يموج بالفتنة والخلاعة، ومازلن يتصببين منصورا القائم على الباب ويلتمسن منه التفرج على المدينة والطواف بأسواقها وغنين له أغنية مطلعها:

افـــــتح يا منصـــــور افـــــتح باب الســـــور

افـــتـــــح للعـــــذارى والســمــــــر الغـضـارى

ففتن الرجل بجمالهن وخلب بإنشادهن، ففتح لهن، وبهذا تمكن عبدهن «أبو زيد» من الإطلاع على الأسرار الداخلية فى المدينة، واستطاع أن يتصل بأنصار الهلاليين وأن يتبين مواطن الضعف فى استحكامات العدو وفى مقاومته، ثم رجع إلى قومه بمعلومات نافعة مكنتهم فيما بعد من اقتحام السور وبسط نفوذهم على القيروان.

وثمة ناحية أخرى فى هذا المقام تشير إليها القصة وهى تدل على أن الهلاليين وإخوانهم رأوا أن يحتاطوا لأنفسهم قبل القيام بالهجوم على القيروان، فعقدوا مجلس الشورى وقرروا أن يقوم الأمير دياب بن غانم فى مؤخرة النجوع الهلالية يحمى الإبل ويحرس الأموال ويذب عن الساقة ويؤدى حق الشيوخ والنساء والذرارى الضعيفة، وقد قام دياب بهذه المهمة وأبدى فيها من الصرامة والمهارة ما دل على فروسيته، ثم لما ابتدأ الهجوم واشتدت وطأته اقتضى الأمر نقله إلى المقدمة لمناجزة العدو والتغلب عليه، وقد كان له فى ذلك مجال واسع تفيض القصة فى تصويره وفى تقديره، وتقول القصة فى تفسير نقل دياب إلى المقدمة أن الهلاليين استطلعوا النجوم فدلهم طالع دياب ابن غانم على أنه هو الذى سيقتل الزناتى خليفة، وهذا هو الذى حدث.

هذه تفاصيل قد انفردت القصة بذكرها، ونحن إذا جردناها من حواشى المبالغة نجدها سائغة مقبولة، بل إننا نلمح فى الرواية التاريخية ما يؤيدها، فقد ذكر ابن خلدون أن زغبة قبيلة دياب قد قدر لها القوم الإقامة فى برقة أول الأمر ثم نقلت بعد الهجوم على القيروان إلى المقدمة، وعلى أى حال فقد تم النصر للأعراب الغزاة بعد حصار شديد الوطأة وبعد وقائع وحروب

دامية قاسية، وقد صارت لهم القيروان بأموالها وقصورها.

بعد الاستيلاء على القيروان:

كان اقتحام الأعراب للقيروان وتغلبهم على ضواحيها ضربة قاسية قضت على آمال المعز بن باديس وهدت كيان الدولة الصنهاجية الفتية، فذهبت بما كان لها من عز ومجد، وأتت على ما كانت فيه من النعيم الوارف والبذخ الفياض، ولقد رآها العمال والولاة فى دولة المعز فرصة سانحة فاستقل كل منهم بما تحت يده حتى صارت الدولة الكبيرة إلى جملة ولايات كل ولاية منها تحت حاكم مسلط أو ثائر متمرد.

على أن الشر قد استحصد إلى أبعد من هذا الحد إذ أمعن الهلاليون وإخوانهم فى مضايقة المعز وتعقبه، فنزلوا غليه المهدية وضيقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة، فاستكان الرجل لما كان، وصبر عليها محنة قاسية تحيق بكل عزيز، وقضى بقية أيامه على مضايقة هؤلاء الأعراب بالتقرب منهم والمحالفة معهم والاصهار إليهم حتى مات سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

وبويع من بعده لإبنه تميم بن المعز، فحاول أن يدرك شيئا من العرب فغلبوه على أمره، وحاصروه فى الدائرة الضيقة التى

تركها له والده، فلم يكن له إلا ما ضمه السور من سوسة على ساحل البحر إلى قابس، ولما تمت الغلبة للقوم على الصنهاجيين مضت جموعهم فى طريقها تأتى على الضواحى والأمصار وبلاد الزاب، فاصطدموا فى ذلك بقبائل زناتة وأحلافهم من البربر، وكانت زناتة كالهلاليين فى شراسة البداوة وصرامة الطباع وشدة البأس والتمرس بأساليب الحرب، فصاحوا بالهلاليين صياح جنود وجهت لجنود، وجهز صاحب تلمسان من بنى خزر لملاقاتهم بقيادة وزيره وقائده أبى سعدى خليفة، فكانت بينهم حروب ووقائع انتصر فيها الهلاليون وقتلوا أبا سعدى بنواحى الزاب، وبسطوا سلطانهم على الضواحى من جميع الجهات، وعجزت زناتة عن مدافعتهم فصالحوهم عليها واستكانوا لبطشهم.

دبيب النزاع والخلاف:

ولم يكن هؤلاء الأعراب عندهم الاستعداد لبناء ملك مستقل ولا فيهم الميل إلى توطيد دولة متماسكة لها شخصيتها ولها طابعها، ولكنهم كما قلنا كانوا أهل بداوة وشراسة، فظلوا يقيمون بالضواحى ويتنقلون بين المرابع والمشاتى. يقطعون الطرق ويفسدون السابلة ويقعدون لملوك أفريقية والمغرب

بالمراصد ، ويأخذون منهم الأتاوات على التصرف فى أوطانهم كما يقول ابن خلدون ، وقد ظلوا هكذا يتدافعون مع القبائل الأخرى على الأمصار، ويعينون الملوك والولاة فى تحقيق أغراضهم ويعضدون الثوار فى نيل أطماعهم نظير ما يتقاضونه من الأتاوات والهبات.

ولكن أرأيت إلى النار يأكل بعضها بعضا إذا لم تجد ما تأكله؟! لقد غدا هذا شأن هؤلاء الأعراب، فإنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتقارعون على البلاد والمحلات، إذ أخذ ملوك صنهاجة وزناتة يوقعون بينهم ويسلطون بعضهم على بعض، ولعلك تذكر مما قدمنا لك أن الخلاف كان مستعرا بين هؤلاء الأعراب أيام كانوا بمصر، وأن الخليفة الفاطمى أصلح بينهم حين أرسلهم إلى أفريقية، فكان من الطبيعى أن ينكأ هذا الخلاف القديم وأن يشب أواره الأدنى قدح، وأن يمتد إلى خلاف بين جميع البطون والقبائل تقضى به العصبية البدوية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فانهم كانوا يتنافسون على النزول فى المواقع وعلى الرياسة والسيطرة، ومن ثم كانوا يختلفون فى معاونة الملوك من أصحاب الولايات والإمارات، وكأن هؤلاء الملوك والولاة تبينوا هذا الضعف فى تماسكهم فدخلوا عليهم من هذه الناحية، فكانوا يحتمون من بعضهم ببعضهم الآخر، ولهذا كله استفحل

الشقاق والصراع بين هؤلاء الأعراب بعد أن كانوا وحدة تمسكهم الغاية المرموقة ويضمهم الغرض المشترك.

وأكثر من هذا فقد دب الشقاق والصراع بين بطون الأثبج وهى أقوى بطون الهلاليين وكانت لهم الرئاسة، ولكنهم لم يكادوا يفرغون من قتال صنهاجة حتى وقعت الفتنة بينهم، وذلك أن الحسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة ابن الأحمُير من كرفه غيلة، فطوت كرفة له على الهائم، ثم أن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضى ابن مقرب من قرة ولحقت بأخيها فمنعها منه، فاجتمعت قرة وكرفة على فتنة الحسن وقومه، وظاهرتهم عياض، ولم تزل الفتنة قائمة إلى أن قتل الحسن بن سرحان، وقتل أولاد شبانة بن الأحيمر، وثأروا منه لأبيهم، ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وقرة وعياض، وهكذا ظل التناحر بين هذه البطون دواليك.

على هذه الحال لبث الهلاليون وإخوانهم فى الشقاق على أنفسهم، والثورة على الملوك والولاة الذين يحكمون الأمصار، وعلى هذا الحال لبثت أفريقية فى جميع نواحيها وما يتصل بها من بلاد المغرب وهى مسرح للفتنة والثورة ومجال للنزاع والنزال مما أدى إلى خراب البلاد والأضرار بالعباد، وزاد فى سوء الحال واستفحال الخراب توالى الهجمات الخارجية على

الشواطيء وطمع أمم النصرانية فى أقاليم أفريقية مما يطول شرحه، وليس هذا البحث القصير موضع تفصيله.

ولما ظهرت دولة الموحدين وتم لها السلطان على سائر دول المغرب في أواسط القرن السادس للهجرة، وزحف شيخهم ابن عبد المؤمن على أفريقية، كانت له مع هؤلاء الأعراب أخبار وأحداث طويلة. ذلك أنهم عاهدوه على الطاعة والولاء فى أول الأمر، ووفد عليه أميرا الأثبج وجشم لهذا العهد فتلقاهما بالاكرام وعقد لهما على قومهما، ولكنهم عادوا فنقضوا طاعة الموحدين وخرجوا على ولائهم، فنازلهم الموحدون، فوقف العرب لهم وأثبتوا فى مستنقع الموت أقدامهم كما يقول ابن خلدون، ولكنهم لم يصبروا على الثبات فأستلحقهم الموحدون وغلبوا عليهم وغنموا أموالهم. وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم، فاضطروا إلى الإذعان للموحدين والدخول فى دعوتهم، وأطلق ابن عبد المؤمن أسراهم وأرجع أموالهم، وجرت بينهم الأمور على الود والتحالف، وكانوا للموحدين أكبر عون وسند فى غزو بلاد الأندلس وتأديب الأقاليم الثائرة عليهم.

ثم كانت فتنة ابن غانية وخروجه على الموحدين ومنازلته لهم فى بجاية سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، فمالت إليه قبائل وجشم ورياح وجمهور الأثبج من الهلاليين وإنحازت زغبة إلى

الموحدين، ونزل بنو غانية فى جموعهم إلى قابس وطلبوا إلى الخليفة العباسى ببغداد تجديد العهد لهم فعقد لابن غانية وأذن له فى حرب الموحدين، واجتمعت له قبائل بني سليم وظاهره بعض ولاة الأقاليم، وخرج ابن غانية فى جيوش جرارة من هذه القبائل، فاستولى على الضواحى وافتتح بلاد الجريد وقفصة وغيرها من المدن، فنهض إليه المنصور صاحب الموحدين فى جيوش جرارة، فهزمهم ابن غانية فى أول الأمر، فعاود المنصور الهجوم عليه من ناحية تونس فهزم ابن غانية جموعه هزيمة منكرة ومازال يمعن فى تتبعهم حتى شردهم فى صحارى برقة، وعادت جموع الهلاليين وإخوانهم إلى الإذعان له والدخول فى طاعته، فنفاهم إلى المغرب الأقصى وأنزل جشما ببلاد تامسنا، ورياحا ببلاد الهبوط، وأبقى فى مكانها من المغرب الأوسط بين مصاب وجبل راشد بعد أن اعتزلوا إخوانهم الهلاليين وتركوا مكانهم الأول بقابس وطرابلس.

واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم وأتباعها كما يقول ابن خلدون وهم على طبيعتهم فى التنازع والتصارع، والأيام تعلو بهم وتنزل، والأحداث تعطيهم وتأخذ منهم، حتى انقرض من بطونهم من انقرض وبقى منهم أعقاب وفلول فقدوا شخصيتهم وضاعت سطوتهم، وانطوت فى بطون

الأيام وتصاريف الأقدام سيرتهم. سنة الله فى سائر خلقه وطبيعة الزمن فى معاملة أهله.

وأما بعد، فهذا مجمل لتاريخ أولئك القوم، أوردناه ليكون أساسا لما تأخذ فيه بعد من دراسة القصص الذى يحكى عنهم والذى يسمر به أهل مصر فى ناديهم، وهم لا يعرفون أين من التاريخ حقيقته، ولا يحسبون أن له أصلا صحيحا فى حكايته، ولكنا نرى من الوفاء لحق التاريخ ولواجب البحث أن نقول كلمة فى النتائج التى تحققت من خروج أولئك العرب إلى أفريقية قبل أن نمضى فى وجهتنا..

نتائج وآثار:

ومن أجل أن نقف على النتائج والاثار التى حققتها غزوة بنى هلال وإخوانهم لأفريقية وما يتصل بها من الأقاليم، لابد من أن نرجع بالنظر إلى صلة العرب بتلك البلاد، وأن نعود إلى تاريخ دخولهم إليها وهو تاريخ طويل يمتد إلى صدر الإسلام، إذ استطاع القائد الاسلامى العظيم عقبة بن نافع أن ينتزعها من تحت الروم، وأن يخضع القبائل البربرية التى تقطنها لحكم الإسلام، وأن يؤسس مدينة القيروان فى سنة خمسين للهجرة، ولكن هذه الغزوة التى قام بها عقبة ولم تكن فى الواقع كافية

لتوطيد سلطان العرب على جميع الأقاليم، لم تكن حدا فاصلا بين عهدين في تاريخ تلك البلاد، إذ ظلت أهم المدن والحواضر الحصينة في يد الروم، وظل البربر يناهضون الفاتحين في مناسبات عديدة حتى اضطر زهير بن قيس خليفة عقبة إلى التقهقر أمامهم، فلما جاء من بعده حسان بن النعمان استطاع في عام تسع وسبعين للهجرة أن يخضع البربر لسلطانه، وأن ينتزع جميع الحواضر من يد الروم حتى قرطاجنة العظيمة.

وقد ظلت أفريقية منذ الفتح ولاية يرعى شئونها عامل مصر ويقوم بتدبيرها فيما يقوم به من الأعمال، فلما كان عام ستة وثمانين للهجرة صارت ولاية قائمة بنفسها ولي عليها موسى بن نصير من قبل الخليفة في دمشق، على أن تلك البلاد ظلت مسرحا للتنازع والثورات العنيفة التي تزعزع أمامها سلطان العرب، وفي عهد الخليفة المنصور العباسي حاول العرب توطيد سلطانهم مرة أخرى في أفريقية فنجحت المحاولة إلى حد ما، ثم قامت دولة الأغالبة وبسطت نفوذها على الإمارات والأقاليم، ولكن هذه الدولة لم تكن تابعة للعباسيين إلا اسما فقط، ثم كانت سائر أنحاء أفريقية وأقاليمها، فلما انتقلوا إلى مصر أقاموا عليها واليا من قبلهم وتوطدت صلتهم بها على هذا الوضع حتى خرج ذلك الوالي عليهم وانحاز إلى الخلافة العباسية وخطب

للخليفة العباسي في بغداد، فكان أن أرسلوا ببني هلال واخوانهم لاخضاع ذلك الوالي وإعادة هيبتهم في تلك البلاد على ما مر بك من قبل.

فأنت ترى من هذا العرض التاريخي الموجز أن بلاد أفريقية وما يتصل بها من الأقاليم ظلت عهدا طويلا ميدانا للغزو والفتح، وأن صلة العرب بهذه البلاد ظلت عند وضع محدود مقدر، وأن القبائل البربرية التي كانت تقطن تلك البلاد بقيت قوية الشوكة واسعة الصولة راجحة بعددها وعصبيتها. فلما تمت رحلة عرب الهلالية وإخوانهم إلى تلك البلاد وجرى ما جرى من حروبهم فيها وقراعهم عليها، كان لذلك آثار واضحة في تغيير الوضع السابق والاتجاه بالحياة هناك إلى وضع جديد له مظاهره وخصائصه، وكان من أبرز هذه الآثار أن زادت نسبة العرب على نسبة البربر من السكان الأصليين، وأن استعربت تلك البلاد استعرابا إن لم يكن كاملا فهو أقرب إلى الكمال، حتى لقد فقد البربر كثيراً من مميزات شخصيتهم وتوصيتهم تحت تأثير شخصية أولئك الأعراب القوية ونفوذهم الواسع، فهجروا لغتهم ولهجاتهم تدريجيا وفقدوا أيضا اسمهم القديم كما تقول دائرة المعارف الإسلامية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن شراسة أولئك البربر قد

خمدت تحت ضغط أولئك الأعراب وسيطرتهم حتى استطاعوا أن يتغلبوا على قبيلتى **زناتة** وصنهاجة العريقتين اللتين كانتا تسودان الصحراء الغربية فى القرون الأولى للهجرة، واللتين كانتا العقبة فى طريق الفتح الإسلامى لتلك البلاد، فاخضعوهما لسلطانهم وفرضوا عليهما الجزية والأتاوات، ومن ثم أصبحت كلمة صنهاجى مرادفه تقريبا لكلمة عبد أو رقيق [١]. ومن ثم نستطيع أن نقول أن استعراب الأقطار المعروفة الآن بشمال أفريقية مدين فى وجوده لغزوة الهلاليين، ولولا هذه الغزوة لبقى الجنس البربرى هو المسيطر على تلك البلاد بعاداته وتقاليده ونفوذه وسيطرته.

على أن دخول بنى هلال إلى بلاد أفريقية وإن غير فيها وضع الحياة من هذه الناحية، فإنه لا شك قد حفظها من ناحية أخرى هى ناحية الروح والمظهر. ذلك لأن البربر الذين كانوا يقطنون تلك البلاد من قديم إنما كانوا قبائل يحيون حياة البدو فى الأخذ بأوضاع العيش وأساليب الحكم والعمران، ولقد عاشوا طول حياتهم متأبين على أوضاع الحضارة الطارئة عليهم سواء على يد الروم أو بالفتح الإسلامى من بعد، فكان دخول العرب الهلالية إلى تلك البلاد امتداداً لهذه الروح واستمرارا لهذا الوضع، ولقدظلت هذه الروح البدوية مسيطرة على تلك الأقطار آمادا

(١) راجع دائرة المعرف الإسلامية المادة الخاصة بالبربر.

طويلة ولا تزال آثارها باقية واضحة إلى هذه الأيام فى الأقاليم والسهول والهضاب والصحارى التى تكتنفها، ولقد كانت هذه الصبغة البدوية التى تعيش عليها القبائل التى هناك إلى الآن والتى تشيع فيها النخوة العربية والنعرة البدوية هى الصخرة التى ارتطم بها الاستعمار الفرنسى ثم الاستعمار الإيطالى من بعد... إذ وقفت تلك القبائل السنين الطويلة تحمل سلاحها فى وجه الاستعمار الغاشم، تأبى الخضوع والإذعان، وتؤثر الموت والتشريد على حياة الذل والاستعباد، وليست مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى لفرنسا، ومجاهدة الشهيد عمر المختار لايطاليا إلا مظهرا لتلك النخوة البدوية التى سيطرت على تلك البلاد قرونا طويلة وامتدت فيها متسلسلة من قبائل البربر إلى قبائل بنى هلال.

وهناك أثر آخر لدخول بنى هلال وإخوانهم إلى أفريقية، وهو فى مبعثه أثر نفسانى كان نتيجته تلك الحروب الدموية التى طالت بين هؤلاء الأعراب وبين سكان تلك البلاد، وما أدت إليه من ضروب القسوة والعنف وفنون النهب والسلب، ثم ما صبغت به الحياة فى نفوس أولئك الناس من الخروج على الأوضاع والاستهانة بالحدود والزواجر، فكان ذلك مما دعا إلى ظهور كثير من أصحاب الدعوات الدينية أو التى تلبس لباس الدين،

يدعون دعوتهم إلى الإنابة والأخذ بما يرون من التعاليم المنقذة، وإنهم ليجدون فيما يتفشى فى الحياة القائمة من ضروب الظلم واستحكام الجهل ذريعة لهم وشعارا لدعوتهم، لقد كثر عدد هؤلاء وتتابع فى ألوان وأساليب تتفق فى أصولها وإن اختلفت في تفاصيلها، ولو أن مؤرخا أراد أن يسطر تاريخ هؤلاء الدعاة وما كان لدعواتهم من أثر وما قامت عليه من الأسباب والمسببات، لكتب فى ذلك تاريخا حافلا ولوجد مادة واسعة للافاضة لايجدها على هذا الوضع فى ناحية أخرى فى تاريخ الأقطار الاسلامية، ومن العجب أن أصحاب تلك الدعوات كانوا يجمعون الأنصار ويجندون من حولهم الأعوان، وكثيرا ما كانت تتفشى دعواتهم ودعاياتهم ثم يصيرون هم الآخرون مصدر عنف وظلم ولون من الحياة القائمة لا يختلف إلا فى اسمه ولفظه.

وهنا لابد من وقفة قصيرة، فإن جميع المؤرخين الذين أشاروا إلى غزو الهلاليين لأفريقية قد شنعوا على القوم بما اقترفوا من ضروب السلب والنهب، واتهموهم بالغلظة والقسوة فيما اجترحوا من فنون الفساد والفتك، حتى ابن خلدون الذى حفل بأخبارهم وأثنى على بطولتهم شنع عليهم بهذه التهمة في غير موضع، وقد وصفهم أحد المؤرخين المعاصرين (١) بأنهم كانوا جندا همجاً لا يخاف الله ولا يحترم المخلق.

(١) تاريخ تونس للأستاذ حسن عبد الوهاب .

والواقع أن هولاء الأعـراب كـانوا لا يبـقـون على شيء فى طريقهم كما قلنا من قبل، وقد نهبوا المدائن والزروع والثمار، وخـربوا القـيـروان وهى حـاضـرة أفـريقـيـة ودمـروها تدمـيـرا وللمؤرخين عن خراب القيروان حديث طويل، فكلهم متفقون على أن هؤلاء الأعراب قد أتوا على عمرانها من القوعد، فلم تقم لها قائمة بعد، وقد كانت محفل العلماء والشعراء والأدباء، ومظهر الفخامة والترف والثراء، وعنوان الجاه والسلطان، وملتقى كل وافد عليها من الأندلس أو شارد إليها من طغيان الروم، حتى ازدحمت بالخلائق، وكثرت فيها الحرف والصناعات ، ووقفت تباهى حواضر الإسلام الزاهية الزاهرة، وشام الناس أن تخلف قرطبة فى مكانتها، فلما نزل عليها الهلاليون كانت الداهية الدهياء، فأصبحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا، فلم يبق فيها كما يقول بعض المؤرخين غير رجل شيخ كان يشتغل حمالا، فكان يصعد إلى صومعة الجامع القيروانى، ويختبىء فيها. حتى إذا جن عليه الليل أخذ ينوح ويندب عز المدينة الذاهب، وما حل بأهلها الذين هلكوا أو تفرقوا فى الأرض. ولكنا نستطيع أن نلتمس لهم فى ذلك علة تبرر هذا العمل أو على الأقل توضح الدافع لهم على هذا العبث وذلك الفساد. ذلك لأن هؤلاء الأعراب قد نزحوا إلى أفريقية كجند طارق بن زياد حين فتح الأندلس،

ليس لهم من القوات والعتاد إلا ما يستخلصونه من أيدى العدو.. فلأجل أن تأكل هذه الجحافل الكبيرة، ولأجل أن تجد من العتاد ما يعينها على الفتح، كان لابد أن يعمدوا إلى ما عمدوا إليه من الإتيان على كل ما تصل إليه أيديهم، ومن الواضح أن الهجرة إلى بلد اللاستيطان تقوم على الشجاعة، وتقتضى القوة والشدة والبطولة فى مصارعة أهل ذلك البلد، فهم جند بائس يائس لا تعرف الرحمة سبيلا إليهم حتى تكون لهم مقومات الإقامة والتوطن والبقاء، وكذلك كان شأن عرب بنى هلال وسليم حين اجتاحت جموعهم الشاطىء الأفريقى من برقة وطرابلس ثم تونس وما وراءها، وهم يخوضون مع صنهاجة والبربر معارك ضارية وحروبا ساحقة، وينشرون الفناء بين أهل تلك البلاد ليحققوا فيها وجودهم وبقاءهم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نعرف أن هؤلاء الأعراب قد نشأوا على البداوة ودرجوا على الخشونة، وكانت حياتهم فى نجد وفى مصر حياة رحلة وإنتقال وإغارة وسلب، فلم تكن للمدن وللزروع فى نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها فى نفوس أهل الحضر الذين استطابوا العيش فى ظلالها والإقامة فى رحابها، وكأنى بهؤلاء الأعراب قد أرادوا بصنعم هذا أن يخلعوا كل أثر للحضارة فى تلك البلاد وأن يطبعوها بطابعهم وأن يخلعوا عليها

مظهر بدلوتهم الذى يؤثرونه لا الذى يؤثره غيرهم، حتى لا تكون فيما بعد جهة طامع أو مقصد فاتح، وحتى لا يرجع الخليفة الفاطمى فيستخلصها منهم حبا فى خيراتها وحرصا على ثمارها وعمرانها.

على أن هناك ناحية فى التعليل من الوجهة النفسية لا يصح أن نغفلها فى هذا المقام، وهى ناحية لا تتصل بهؤلاء الأعراب وحدهم ولكنها شاملة لجميع القبائل البدوية، فإننا إذا ما رجعنا إلى التاريخ نجد جميع هٰذه القبائل كانت فى فتوحاتها وفى غزواتها تركب العسف والشطط، وتسلك طريق النهب والفتك، وتأتى على معالم الحضارة فى كل مكان تنزل به، كأنهم بهذا يشبعون غريزة مكبوتة فى نفوسهم، ويرضون بهذا التشفى من أولئك الحضريين الذين اعتزوا عليهم بوفرة النعيم وتعالوا عنهم بما يملكون من مناعم الحياة، ولم يشذ عن هذا إلا عرب الفتح الإسلاميون، لأنهم وجدوا فى تعاليم الدين رادعا يردعهم عن اقتراف هذا المنكر وقد كانوا فى غزوهم مبشرين بالدين أكثر منهم طامعين فى التسلط على غيرهم.

إننا لا نقصد بهذا دفاعا عن البربرية وسياسة التخريب، ولكنا أردنا أن نكشف عن الباعث الذى حمل القوم على صنيعهم من الوجهة التاريخية، وأن ندل على أنهم ما جروا فى هذا إلا

على سنة أمثالهم من القبائل البدوية، فمن الإسراف أن يلعنهم المؤرخون بهذا الصنيع، وأن يشنعوا عليهم بهذه الفعلة وأن يطلقوا القول فى ذلك اطلاقا من غير تبرير ولا تعليل، على أنك لو أرسلت النظر معى قليلا لأدركت أن الناس هم الناس فى كل زمام ومكان، وأن حضارة العصر على ما بلغت من علم وأدب وفن وكمال لم تستطيع أن تنزع من الإنسان نوازع الشر، وأن تسمو به على جفوة البداوة وضراوتها، فإذا كانت تلك القبائل البدوية قد أهلكت الثمار والزروع، وخربت المدائن والقصور عندما أغارت على أفريقية مثل الجراد المنتشر كما يقول المؤرخون، فقد رأينا فى هذا العصر أعظم الأمم مدنية وحضارة وتفوقا وهى تدك المدائن والمرافق بطائراتها لتمحوها من الوجود محوا، وتستبيح لنفسها هدم ما شيده الإنسان من ايات العمران فى سبيل أطماعها، وأشباع شهوة الانتقام من أعدائها، وليس من شك فى أن ما دمرته الأمم المتحضرة أيام الحرب العالمية الثانية فى شمال أفريقيا من المرافق والعمران يبلغ أضعاف ما دمره أولئك الهلاليون فى حروبهم وغزواتهم بتلك الرقعة من الأرض.

الفصل الثانى

كيف نشأت قصة بنى هلال وكيف تطورت؟

نشأة القصص الإسلامي:

في حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال من ألف ليلة وليلة «أن مملوك التاجر حسن عندما أراد أن يبرح دمشق رأى شابا يجرى وهو يتعثر بأذياله. فقال له: ما بالك تجرى وأنت مكروب وإلى وأين تقصد؟ فقال الشاب: هنا شيخ فاضل يجلس كل يوم على كرسى فى مثل هذا الوقت يحدث حكايات وأخبارا، ويروى أسمارا ملاحا لم يسمع أحد مثلها، وأنا أجرى حتى أدرك موضعا قريبا منه، لأنى أخاف أن لا أجد ذلك من كثرة الخلق. فقال المملوك له: خذنى معك فقال الفتى: أسرع فى مشيتك. فأغلق المملوك بابه وأسرع فى السير معه حتى وصل إلى الموضع الذى يحدث فيه الشيخ بين الناس، فرأى شيخا صبيح الوجه يجلس على كرسى يحدث الناس، فجلس قريبا منه، وأصغى ليسمع حديثه، فلما جاء وقت الغروب فرغ الشيخ من الحديث وانفض المجلس...».

وإنما أوردنا هذه الحكاية لأنها تصوير صادق لحال المجتمع الإسلامى وبخاصة فى العراق ومصر، بعد أن سقطت الهمم وإنحلت العزائم وخضدت شوكة الخلافة بما منيت به شرور الفتن ومآثم الكيد ومطامع الخارجين، ولعل من المعروف أن القصص كان أداة استغلتها السياسة الإسلامية منذ فجر الإسلام فى الدعاية والترويج والغض والتشنيع ، ويقولون إن معاوية بن أبى سفيان كان أول من أخذ بهذا السبيل، فكان أول من ولى رجلا على القصص واهتم بشأنه. ولقد روى ابن أبى الحديد عن جعفر محمد بن على الباقر أنه قال: «لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضوعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال الشر فى كل بلدة فحدثوهم الأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله ولم نفعله ليبغضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن..».

ومهما يكن من شىء، فإن القصص فى زمن معاوية وإلى عهد من بعده ظل يجرى فى دائرة الدين وما يتصل بمناقب الرجال ومثالبهم، ثم لم يلبث أن ظهر القصص الأدبى، فكان الرواة يتلقفونه من أهل البادية، ويحدثون به عند الخلفاء والولاة

وفى مجلس الخاصة، فلما كان النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة، وكانت عوامل الانحلال قد تسربت إلى المجتمع الإسلامى وإلى جسم الدولة تحول القصص إلى أداة لهو وتزجية فراغ، وصار القصاص يتاجرون به بضاعة رابحة رائجة عند العامة، حتى لقد كانوا يجلسون للتحدث به على قارعة الطريق، وأنك لتستطيع أن تتصور حقيقة هذه الحال فيما رواه الطبرى فى حوادث سنة ٢٧٤ للهجرة إذ يقول: «وقد تقدم الخليفة المعتمد إلى العامة بلزم أعمالهم وترك الاجتماع والعصبية ومنع القصاص من القعود فى الطرقات على جانبى بغداد...».

المجتمع المصرى والقصة:

إلى هذا الوضع تحول القصص فى المجتمع الاسلامى، وعلى هذا الوضع انتشر القصاص فى العواصم والأمصار يحدثون العامة ويحكون لهم ويشبعون رغباتهم بالتزيد والتهويل والاختلاق والتطويل، ولقد امتازت مصر فى ذلك بالمكان الأول وبخاصة فى القرن الرابع عندما تم الحكم فيها للفاطميين، إذ أقام هؤلاء الدعاة الدهاة حكمهم بالدعاية أكثر مما أقاموه بالسيف، ومهدوا الطريق إليه بالترغيب أكثر مما مهدوه بالعسف، وكانوا من ذلك عند خطة مرسومة وطريقة بارعة تمتلك

نفوس العامة وتستهويهم فدخلوا عليهم بالقصص فيما يتصل بالحرب والسياسة والدين والخلافة والأساطير، وكان القصاص الحكوميون يجتهدون فى وضع الأخبار والأسمار، والقصاص الشعبيون يسايرونهم فى هذا الوضع ويجارونهم على هذا النهج، والمصريون كما يقول، الأستاذ بات: «سكان قطر زراعى ملموم الرقعة متصل العمارة مشهود بالخير الكثير على الجهد القليل، فكان لذلك أهله قليلى الأسفار يؤمنون بكل خبر، كثيرى البطالة يميلون إلى اللهو والسمر»، ومن ثم لم يمض إلا قليل حتى استطاع أولئك: الفاطميون الطارئون على البلاد أن يصبغوا المجتمع المصرى بصبغتهم، وأن يكيفوه على غايتهم، وأن يخرجوه صورة مطابقة لظاهر دعوتهم ودعايتهم فكانت القاهرة أشبه بالسامر العامر، كل يوم عند موسم جديد ومهرجان حادث وقصص يروى وأحاديث تشاع، والناس فى الأندية والمجالس يقبلون على هذا متلهفين، ويتقبلونه مبتهجين مطمئنين، ينحدر إليهم من أفواه القصاص سمرا شهيا ممتعا، ثم يرددونه عنهم، وفيه ما فيه من التزيد والإغراق.

ولقد ظلت هذه الصبغة هى طابع المجتمع المصرى فى العهود التى توالت بعد الفاطميين، ولا تزال بعض ألوانها إلى اليوم تبدو مقبولة محبوبة وإن كانت محصورة فى طبقات

خاصة، ولقد كان من الطبيعى أن يتميز القاص المصرى فى هذا المجتمع الخصيب، وأن يكون محصوله فى ذلك وافرا ونتاجه وافيا، فكان أبرز وأوفى من أجدى فى هذه الناحية وما «ألف ليلة وليلة» و «قصة الهلالية» و «قصة الظاهر بيبرس» و «قصة سيف بن ذى يزن» وغيرها من القصص، إلا من فيض براعة القصاص المصريين وقدرتهم على التحليل والإفاضة، سواء ما ابتدعوه منها ابتداعا أو ما مدوا فيه بالتزيد والإغراق والاختراع والاختلاق. وإذا كان هؤلاء القصاص قد تناولوا «ألف ليلة وليلة» أصلا عن الفارسية مدوا فى فروعه أساسا ارتفعوا ببنائه، فإنهم كذلك فى قصة الهلالية تناولوها عن الأصل التاريخى، وأخذوها مما جرى فى رحلة أولئك الأعراب إلى مصر، ثم إلى بلاد أفريقية، وما وقع لهم من الحروب والأحداث، وانتقلوا بذلك الأصل التاريخى إلى ميدان الخيال الفسيح، ولقد ظلوا على طول السنين حتى اليوم يمدون فيه ويزيدون عليه ويشتقون منه، حتى كانت تلك القصة الطويلة التى نراها متداولة مدونة فى المطبوعات الرخيمة والتى يستوعبها أكثر العامة من أبناء مصر، وبخاصة فى القرى والأقاليم، وإنها لمظهر امتيازلهم، وأوضح أثر ثقافى عندهم وأنفذ سلطان على قلوبهم وعقولهم.

فى أى عصر و ضعت القصة الهلالية ومن الذى و ضعها؟

وأول ما يعن لنا ونجن بصدد الدراسة لهذه القصة أن نسأل على عادة الباحثين: فى أى زمن وضعت ومن الذى وضعها؟ وما مدى الصلة بين وقائع القصة والأصل التاريخى لها؟

يقول المستشرق «إدوارد لين» فى كتابه عن عاداته المصريين المحدثين: وقصة أبو زيد الهلالى تسنتد إلى حوادث وقعت فى منتصف القرن الثالث للهجرة، والمعتقد أنها دونت بعد ذلك العصر. بل المؤكد أنها وضعت بعد ذلك بكثير. وهذا كلام غلط فى أوله، صحيح فى آخره، فإن حوادث القصة لم تقع فى منتصف القرن الثالث للهجرة، بل فى القرن الرابع كما سنوضحه بعد، وأما أن القصة وضعت بعد ذلك بكثير، فهذا من المؤكد كما يقول «ادواردلين».

ولقد أشار كلوت بك فى الجزء الثانى من كتابه «لمحة عامة إلى مصر» إشارة عابرة إلى شغف المصريين بسماع هذه القصص وانقطاع الرواة للحديث بها. وبعد أن أورد شيئا مما تحكيه القصة عن أبى زيد الهلالى قال: والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت فى القرن العاشر من الميلاد المسيحى...

ولأن هذا «المفهوم» الذى أورده كلوت بك مورد التسليم فى التعيين للزمن الذى وضعت فيه هذه القصة، لا يتفق وما تقرره

الحقيقة التاريخية فى شأنها. لأن رحلة بنى هلال الثانية إلى أفريقية كانت فى القرن الحادى عشر للميلاد، وهذه الرحلة هى التى قام عليها هذا القصص وأوحت إلى القصاص بما أفاضوا فيه من غرائب الوقائع والأخطار، وإلى الشعراء بما تغنوا به من الأغانى والأشعار [1].

وأذكر بهذه المناسبة أن طالبا توجه إلى احدى المجلات العلمية فى مصر بالسؤال عن العهد الذى وضعت فيه قصة أبى زيد الهلالى، فأجابت بأن هذه القصة كانت شائعة فى القرن الثامن للهجرة أما الزمن الذى وضعت فيه فيظهر أنه بين أوائل القرن الخامس وأوائل الثامن، فأعجب لهذا التعيين العلمى الذى تقدر فيه مسافة الحصر بثلاثة قرون كأنه حصر العلماء للزمن الذى وجدت فيه الدنيا وتم فيه ظهور الكواكب والأفلاك والسماء والأرض...

حقا إن القصة كانت شائعة لعهد ابن خلدون، وأنا أرى أنها فى ذلك العهد كانت قد استوفت تفاصيلها واستكملت أجزاءها، وقد أشار ابن خلدون نفسه فيما ذكره عن هذه القصة إلى أن بطون بنى هلال كانوا يتناقلونها خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، أى أنها درجت على الألسن حتى عهده آمادا طويلة وأجيالا

١ـ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة «أبو زيد الهلالى».

متعاقبة، وعندى أن وضع هذه القصة إنما يرجع إلى حقيقتها الواقعية ووضعها من التاريخ. ذلك لأن الهلاليين وإخوانهم حين رحلوا إلى أفريقية إنما رحلوا لأمر يهم المصريين حكومة وشعبا، وكان من الطبيعى أن يكونوا دائما حريصين على تسقط أخبارهم وإذاعة انتصاراتهم، يتحدثون بذلك فى أنديتهم ومجالسهم ويتناقلونه بالرواية والحكاية ويزيدون فيه بالتهويل والإغراق على ما يرضى رغباتهم ويشبع شهواتهم فى مثل ما نرى بيننا اليوم من التهويل بأخبار الحرب وإختلاق القصص المثيرة عن وقائعها، بل لقد كان المجتمع المصرى فى ذلك الوقت أخصب فى هذه الناحية على ما قدمت لك، ولم تكن ثمة مصادر رسمية يرجع إليها فى تعرف الأخبار كما هو قائم بيننا الآن من الرجوع إلى الصحف وشركات الأنباء وبلاغات الجهات المسئولة.

قصة من و ضع العصور وخلق العبقرية المصرية:

نشأت إذن القصة الهلالية بمنشأ حقيقتها من التاريخ ودرج بها خيال القصاص والمحدثين فى السمر والإفاضة على الوضع الطبيعى. تطول بتطاول الأيام وتهول فى براعة القصاص بما يشبع لهفة السامعين ويشبع عواطفهم من تصوير للمثل الأعلى

فى البطولة وأهوال المعارك العنيفة ومغامرات الحب البارعة وتسقط الحيل العجيبة، ولا شك أن بنى هلال وسليم كانوا طرفا مشاركا فى نمو القصة والتهويل بحقيقتها التاريخية، إذ كانوا يتحدثون بما لهم من الأخبار والوقائع فى مقام الفخر والإعتزاز ، وهو مقام يدعوهم إلى المبالغة ويقتضيهم الإغراق وكانوا يتناقلون ذلك جيلا عن جيل ويخلعون عليه من التزيد ما يكون عادة فى تناقل الحديث، والقصاص يروون هذا عنهم وفيه تزيدهم أيضا، وهكذا كانت القصة من تزيد الطرفين وتهويل الجانبين، وهكذا كانت أيضا إنعكاسا لأحاسيس أولئك وهؤلاء وتصورهم وإنفعالهم بما يلائم الحياة التى يحيونها والوسط الذى يعيشون فيه، وإذن فليست القصة من وضع واضع بعينه أو شخص بمفرده، ولكنها من وضع الأجيال وخلق العصور المتتابعة، والظاهر أنها كانت فى بادىء الأمر حديثا مشاعا يتحدث بها الناس كما قلت فى أنديتهم ومجالسهم، ثم استأثر بها القصاص بقوة براعتهم فى الخلق والتزيد واحتكرتها طائفة خاصة للتكسب من الحديث بها على نحو ما هو باق إلى أيامنا الحاضرة.

على أن هذه القصة وإن كانت قد وضعت فى مصر واستوفت تفاصيلها من خلق العبقرية المصرية وبراعة القصاص

المصرى، فإنها قد عبرت إلى الأقطار العربية الأخرى وشاعت عند طبقاتها وبخاصة فى شمال أفريقية، ذلك لأن تلك البلاد كانت مسرحا للحقيقة التاريخية لهذه القصة، وقد صارت صلة الهلاليين وإخوانهم بها أقوى وأشد، كما كان التواصل بينها وبين مصر قويا مكينا، وإن هذه القصة لتروى إلى اليوم فى تلك البلاد وفى غيرها وفيها الأثر المصرى واضح ملموس، إذ تحكى بلغة يشيع فيها كثير من الألفاظ المصرية الدارجة والتعابير السائدة فى لغتنا العامية، مما يدل على أنها وفدت عليهم من مصر بأصولها وتفاصيلها، وأن القصاص هناك ليتحدثون بها فى المجتمعات كما يحدث «الشعراء» عندنا فى مقاهى القاهرة وعلى «مصاطب» القرى فى الريف، لا يختلفون إلا أنهم فى مصر يختصون الليل بهذا الحديث بعد أن يفرغ السامعون من أعمالهم، وهناك يقصرون الحديث على ساعتين قبل الغروب ثم يهبط عليهم الظلام.

القصة والحقيقة التاريخية:

والقصة في وضعها تتسق مع الوضع التاريخى وتجرى فى تسلسل حوادثها على غزاره، إلا أن وضعها بالرواية ونموها بالتناقل قد أثر فى تفاصيلها وحوادثها الفرعية بالاضطراب

تـأثيرا واضـحا ، فـأنت لا تجد ثمـة أصـلا صـحيـحا تتـفق كل الروايات عليـه فى ذكـر الوقـائع وتقف عنده فى الأسـلوب، لا فى الكتب المطبوعة ولا فى الأحاديث الشائعة، وإنما هى رسـوم أن اتفـقت فى دلالتـهـا فـهى تخـتلف أشـد الأخـتلاف فى روايتـهـا وتفـاصـيلهـا، كـمـا هو الشـأن فى كل قـصـص شـعـبى لا تجـده أوضـاع علمية، ولكنه يجرى متموجا ويفيض فى مثل عواطف الشعب وإنفعالاته.

ويشـيـر «ادواردلين» إلى أن القـصـة الهلاية تتكون عـادة من عـشـرة أجـزاء، أو أكـثـر، من الحـجـم المربع الصـغـيـر، ولعل المستـشـرق البـريطانى قـد رأى نسـخـة من القـصـة على هذا الوضـع، والحقيقة أن القصـة الهلالية ليست مقسمة إلى أجزاء كما هو الشأن فى قصة عنترة، وقصة الظاهر بيبرس، وإنما هى تتكون من حلقات، ولن تجد نسخـة منها تشبـه الأخـرى، لا فى التقسيم، ولا فى النص، ولقد بذلت جهداً كبيرا فى البحث لعلى أن أقف على الأصـول الأولى للقصـة، أو ما يمكن أن يكون قريبا من هذه الأصـول، فلم أقع على شىء يعتد به فى هذه الناحيـة، وغاية ما وجدت من مطبوعات القصـة فى دار الكتب المصـرية قصتين: أحداهما تسمى «الألفاظ الحسان، فيما جرى لأبى زيد الهلالى مع مشرف العربان» والثانية تسمى «الريادة البهيـة وما

جرى للأمير أبى زيد والعرب الهلالية». والقصتان مطبوعتان على الحجر فى أواخر القرن الماضى، وقد كتب عليهما أنهما من تأليف «نجد بن هشام» ويبدو لى أن «نجد بن هشام» اسم لا حقيقة له، وأنه فى رواية القصة مثل «الحرب بن همام» فى حكايات مقامات الحريرى، وعلى أية حال فقد نظم المؤلف أو «الشاعر» القصتين بلغة المجالس العامية على طريقة الشعر الهلالى، وهما من هذه الناحية تخالفان سائر القصص الأخرى فى أسلوب الرواية، وطريقة العرض، فإن القصة المألوفة فى وضعها وفى عرضها تتكون من شعر ونثر، أما هاتان القصتان فشعر خالص، ولعل هذه هو ما عناه نجد بن هشام بقوله إنهما من تأليفه، والقصتان تبدآن بعبارة متفقة، وهى بعد حمد الله: «أما بعد، فقد قال المؤلف لهذا الكلام، لما رأيت هذه القصة من أحسن القصص، وهى مزيلة للعبوس والغصص، مجلبة للسرور والفرح، ومن سماعها القلوب تنتعش وترتاح، لأنها محتوية على ما جرى فى سالف الزمان، وقديم العصر والأوان..»، وهذه العبارة تدلنا على أن المجتمع المصرى كان يطلب القصة ويشغف بها للتسلية، فهى مزيلة للعبوس والغصص، وبها تنتعش القلوب وترتاح..

ووجدت فى «دار الكتب» أيضا إلى جانب هذا مجموعة من

هذه القصص، منها ما هو مطبوع على الحجر، ومنها ما أخرجته المطابع الشعبية منذ راجت الطباعة فى مصر، ومن هذه المجموعة قصة «الأنس والابتهاج عن أبى زيد الهلالى والناعسة وزيد العجاج» و «قصة الألفاظ الطريفة فى رحلة العرب وحرب الزناتى خليفة» و «قصة الدرة المنيفة فى حرب دياب وقتل الزناتى خليفة وشنق الزغابة وسجن دياب» و «كتاب السبع تخوت وسلطنة دياب وأبى زيد وتملك الأربعة عشر قلعة»، وقد تكون هذه القصة من أحسن هذه القصص شعرا ونثرا، وأغربها أحداثا وأفعالا، وأشدها حروبا ونزالا..

وكل هذه القصص وغيرها مما وقفت عليه، لم يذكر عليها اسم المؤلف كما فى القصتين المنسوبتين إلى «نجد بن هشام» واللتين أشرت إليهما من قبل. وكلها تبتدىء بعبارة تقليدية موجزة فى تقريظ قصص بنى هلال وأشعارهم، ووصف حب الناس لها، وإقبالهم عليها، ثم تجرى كلها على نسق متفق فى الفصل بين كل واقعة وواقعة بكلمة «قال الراوى» ، والوقوف عند عبارات مكرورة، وجمل وألفاظ لا تتغير فى وصف الطعان والنزال، ثم تتفق كلها فى الموقف الختامى، إذ ينقطع الحديث عن موقف لم يتم، ويشد بذاك القارىء فى لهفة على ما بعده، وشغف بما يكون فى نهايته، وتلك عادة من عادات الشعراء

الذين يحدثون بهذا القصص، إذ كانوا يصنعون هذا الصنيع حتى يكون ذلك أدعى إلى حرص السامعين على مداومة الحضور لسماع قصصهم، ومتابعة حديثهم.

ولو أننا أردنا أن نقدم للقارىء ملخصا وافيا بما اشتملت عليه قصة بنى هلال وإخوانهم من أروع الوقائع وأبرع الحيل وغريب الحوادث وطريف النوادر - لفاض ذلك عن المقام المحدود، ولزاد على الشرط فى هذا البحث الموجز، فحسبنا هنا أن نورد من ذلك بما يكفى فى الإفادة لما نأخذ به من دراسة القصة وشرح مظاهرها الفنية وخصائصها القصصية:

وفى مكتبة «برلين» كما نقل لنا المرحوم الدكتور «محمد فؤاد حسنين» مجموعة كاملة لقصة بنى هلال وسليم وما كان من رحلاتهم ووقائعهم وحروبهم حتى تلاشى أمرهم وكانت نهايتهم، وفى هذه المجموعة يجد القارىء نسقا متصل الحلقات لهذه القصة التى طال بها الزمان واتسع المكان، وعلى ضوء هذا النسق نستطيع أن نقسم القصة إلى ثلاث حلقات:

الحلقة الأولى وهى التى تروى تاريخ ظهور بنى هلال وسليم فى شبه الجزيرة العربية حتى توطنوا فى بلاد السرو وعبادة..

والحلقة الثانية وهى تحدثنا عن رحلتهم إلى بلا نجد وإقامتهم فيها..

ثم الحلقة الثالثة ويطلق عليها «تغريبة بنى هلال» وتشتمل على حروبهم ووقائعهم فى البلاد العربية وشمال أفريقية وتونس الخضراء، وحروبهم مع الزناتى خليفة وهى أمتع وأروع حلقات القصة بما فيها من وقائع ومفاجآت.

الحلقة الأولى:

أما الحلقة ،الأولى فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم ، فهى تقول: إن هلال بن عامر وفد على النبى ص ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية حتى أن النبى أسكنه وادى العباس. وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم، ورزق بولد سماه المنذر، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده وحذق الفروسية والقيام بأعمال السلب والنهب، ثم تعرف إلى الأمير «مهذب» وتزوج بابنته «هذبا» ولما مضى على زواجهما عشر سنوات ولم ينجب منها قرر الزواج بثانية فرحل إلى بلاد «السرو وعبادة» حيث تزوج بابنة الملك الصالح «عذبا»، وهنا تأتى القصة بمفاجأة قصصية غريبة فتحدثنا بأن زوجته الأولى «هذبا» أنجبت له «جابرا» بعد ذلك العقم الطويل، كما أن «عذبا» أنجبت «جبيرا»، ولكن لم تلبث الغيرة أن دبت بين الأثنتين مما أدى إلى نزاع عنيف فى الأسرة انتهى بطلاق «عذبا» ورحيلها مع ابنها «جبير» إلى نجد. ومن ذرية «جابر»

و«جبير» رحالات بني هلال وبطونهم الذين يمثلون أدوار البطولة في القصة وتحكي عنهم حوادثها ووقائعها، فجابر ولد له عامر وتامــر وهاشم وحــازم ومن نسل هؤلاء «رزق» والد أبي زيد وسرحان والد السلطان حسن. أما جبير فقد ولد له رباح وحنضل والنعمان. ومن ذرية رياح دياب بن غانم.

ثم تنتقل القصة إلى الحديث عن «رزق» والد «أبو زيد» فتذكر أنه كان أميرا من أمراء العرب، وأنه كان مزواجا تزوج من عشر نســاء فلم ينجب من واحدة منهن إلا ولدا ليس له ذراعان ولا ساقان، فتزوج بامرأة تسمى «خضراء» فرزقت منه بفتاة تدعى «شيحا» ثم حملت بغلام هو «أبو زيد». ولما كانت في شهور الحمل خرجت للتنزه مع جارتها فرأت طيرا أسود اللون انقض على سرب من الطيور الأخرى. فقتل بعضها وشتت بعضها الآخر، فتضرعت «خضراء» إلى الله أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير في قوته وشدة بأسه ولوجاء أسود اللون، فاستجاب الله دعوتها ـ وولدت الغلام فما كادوا يرون سواد لونه حتى هالهم الأمر، وطلبوا من والده أن يطلق «خضراء» لأنها جاءت بولد لا يشبهه، فلابد أن تكون خانته فيه، فطلقها على الرغم من حبه لها وتعلقه بولده، وإنتهى الأمر برحيلها هي وابنها إلى الأمير الزحلان عدو بني هلال. فقصت عليه قصتها فأكرم وفادتها وهدأ

من روعها وتعهدها وولدها بالرعاية الكريمة، وعهد بتربية الغلام إلى مودب أولاده، حتى إذ شب الغلام بدت عليه شمائل النجابة والفتوة وشدة البأس، وأولع بألعاب الفروسية وركوب الخيل، وابتدأ يحارب القبائل المعادية، فأظهر من ضروب البسالة ما طار بذكره، ثم حدث أن هاجم الهلاليون بلاد الأمير الزحلان فنهض إليهم «بركات» وهجم على والده وأخذه أسيرا وهم بقتله لولا أن والدته أطلعته على حقيقة الأمر، وكان هذا ابتداء التعارف بين الأب والابن. أما الأمير الزحلان فقد أعجب به وزوجه بابنته «غصن البان»، ومن يوم تلك الواقعة سمى «سلامة» أشارة إلى سلامة القوم على يديه وكنوه «بأبى زيد الهلالى» اعترافا بزيادته على الفرسان فى الحرب. وبنسبه فى بنى هلال بعد أن تمت المعرفة بينه وبين والده.

وبعد أن تفرغ القصة من الحديث على حروب الهلاليين مع الأمير الزحلان وأخبار رزقو ابنه «أبو زيد» تنتقل إلى الحديث عن سرحان والد السلطان «حسن»، فتذكر خبر تعرفه «بشما»، ثم ما كان من وقوعها فى أسر الأفرنج ونجاتها بحيلة لطيفة، ثم تنتهى الحلقة الأولى من القصة بكلام طويل عن حروب وقائع الهلاليين فى اليمن والهند لا يتقيد فيه خيال القصاص بمراعاة التاريخ أو الدقة فى معرفة البلدان، ولكنه خيال شارد لا يطلب

إلا الغرائب والعجائب التى تستهوى العامة.

الحقلة الثانية:

وتأتى بعد ذلك الحلقة الثانية من القصة، فتبدأ بالحديث عن رحلة الهلاليين من بلاد «السرو وعبادة» إلى نجد الخضراء حيث كانت تعيش قبيلة زغبة وذرية خيبر. أعنى قبيلة الأمير غانم وابنه دياب، وتقول القصة: أن هذه الرحلة كانت من جراء القحط الماحق الذى نزل ببلاد «السرو» مما اضطر القوم إلى البحث عن مكان ينتجعونه فقصدوا إلى نجد ليعيشوا مع أقاربهم، وكانت رحلة عنيفة، إذ اصطدم الهلاليون فى طريقهم بيهود خيبر ووقعت بينهم حروب طاحنة تمت بإنتصار الهلاليين. على أن أقامتهم فى نجد لم تكن أهدأ، إذ حارب الهلاليون العقيلى جابر والهديبى وغيرهما من الأمراء الأشداء والقبائل المجاورة مما تحدثت عنه القصة طويلا ووصفته أروع وصف وأبدعه، وتذكر القصة أن السلطان حسن تزوج فى نجد «بنافلة» أخت دياب ابن غانم بعد أن وعده بأخته «نور بارق » التى تعرف بالجازية ولكنه لم يحقق معه هذا الوعد وزوجها لشريف مكة.، وبعد أن تتحدث القصة عن بطولة الهلاليين وحروبهم مع القبائل تشير إلى رحلتهم عن نجد، وبهذا تنتهى الحلقة الثانية.

الحلقة الثالثة:

أما الحلقة الثالثة فهى التى تعرف بقصة الريادة، أو تغريبة بنى هلال، وهى أحفل حلقات القصة بالحروب والأهوال والغرائب والعجائب، وهى مدار حديث القصاص غالبا فيما يتحدثون به إلى الناس فى المجالس العامة. ولا تحفل القصة فى ابتداء هذه الحلقة بما كان من نزول القوم أرض مصر، وقد يمر بعضها بذلك مرورا عابرا، ثم تأخذ فى الحديث عما كان من رحلة الهلاليين إلى تونس الخضراء بسبب القحط الذى نزل بأرض نجد فأضر بالأبل والخيل وهدد النجوع بالجوع والهلاك، ففكر القوم فى الرحلة إلى بلاد المغرب لما سمعوه عن خيراتها الكثيرة وزروعها النضرة، وهنا تبدو القصة رائعة ممتعة، فهى تذكر أن القوم لم يتهجموا فى القيام بهذه الرحلة، ولكنهم فكروا فيها طويلا وأمعنوا فى التدبير لنجاحها وتحقيق الغرض منها فاتفق رأيهم فى ذلك على ارسال بعثة للتجسس وارتياد الحال فى بلاد المغرب ومعرفة ما عند أهلها من الاستعداد للدفاع عنها، وقد تألفت هذه البعثة من ثلاثة فتيان من خيرة أبناء الهلالية جاها وشبابا وجمالا وشجاعة، وهم مرعى ويحيى ويونس وعلى رأسهم أبو زيد الهلالى نفسه متنكرا فى زى عبد تابع لهم، وخرج أبو زيد والفتيان الثلاثة لقصدهم بعد أن ودعهم العرب

على رأسهم السلطان حسن وداعا حارا يفيض بالعواطف الأبوية الصادقة. وسارت معهم (شيحا) أخت أبى زيد مسافة طويلة. وهى تبذل لهم النصح بالحيطة والحذر والصبر على ما يصادفهم من الصعاب والعقبات، وتبكى بكاء مرا على فراقهم حتى نهرها أبو زيد وأمرها بالرجوع عنهم، ثم تأخذ القصة فى الحديث عن سفر هذه البعثة وكيف وقع أعضاؤها جميعا فى قبضة العدو، وكيف استطاع أبو زيد أن يخرج بالحيلة وأن يعود إلى الهلاليين وإخوانهم ويخبرهم بما كان من أمرهم. والظاهر أنه قصة الريادة هذه ترجع فى حقيقتها التاريخية إلى ما قدمناه فى خبر مؤنس بن يحيى أمير رياح وموقفه من القوم حين أرادوا مهاجمة القيروان ، فبسط لهم البساط وحملهم على أن يدبروا لذلك ما عندهم من الحيلة وأن يتحيفوها أولا من الأطراف.

واستعد العرب للهجوم على الغرب، وقد أعدوا لذلك الجيوش والحشود يتقدمهم أمراؤهم وفرسانهم، وجاءوا «بالجازية» من مكة لتكون فى الطليعة مع فتيان العرب لبث الشجاعة فى نفوسهم وقلوبهم، وتطيل القصة فى خبر احضار الجازية واستخلاصها من زوجها شريف مكة بالحيلة، وقد نقلنا هذا الخبر عن ابن خلدون فى الفصل الأول، ولكن القصة تطيل فى

شرحه وتفصيله تفصيلا وافيا ممتعا بما فيه من الحيل الطريفة والأشعار الظريفة.

ثم تفيض القصة فى الحديث عن رحلة الهلاليين إلى بلاد المغرب ودخولهم إلى أفريقية، وما جرى لهم من الحروب الدامية والوقائع العنيفة، ولقائهم فى الطريق للخفاجى عامر والملك الغضبان وشيب التميمى والبردويل بن راشد. وفى هذا تذكر القصة أسماء ملوك وقبائل من الصعب أن نردها إلى حقيقتها التاريخية وكثيرا ما يظهر فيها خلط القصاص وتصيدهم للأسماء والوقائع تصيدا يبدو فيه التلفيق وعدم الدقة، ثم تأخذ القصة فى رواية ما جرى من الحروب والوقائع بين الهلاليين وبين أبى سعدة الزناتى خليفة وأبو سعدة الزناتى هذا شخصية تاريخية كما مر بك. فقد كا قائدا وزيرا لصاحب تلمسان، وقد حار به الهلاليون بعد ما تم لهم فتح القيروان والتغلب على المعز بن باديس. ولكن القصة تضيف كل حروبهم فى أفريقية مع المعز وغير المعز إلى الزناتى هذا، وتصوره فارسا صنديدا وبطلا عنيدا من الصعب قهره والتغلب عليه حتى طالت الحروب بين الهلاليين وبينه أمدا بعيدا. وهنا تصور القصة أبا زيد الهلالى رجلا بارع الحيلة يحتال للتغلب على الزناتى بالدهاء والخيانة فوقف على خطة لقتله وضعتها سعدى ابنة الزناتى نفسه لشغفها بمرعى عندما كان أسيرا فى سجن أبيها. ولما

كان المنجمون قد أخبروا بأن الزناتي لا يقتله إلا دياب بن غانم فقد استخدم أبو زيد ديابا لهذا الغرض، واستعان بالجازية وفتيات العرب الجميلات على اثارته وبث الحمية فى نفسه، وبرز دياب لمنازلة خصمه ولكنه وجد نفسه أمام خصم عنيد لا يقهر بسهولة، ولا يمكن التغلب عليه نظراً لما كان يلبسه الزناتي من الزرد والمغافر التى تغطى جميع جسمه، فأشار عليه أبو زيد بأن يطعنه فى عينه وهو يلتفت إليه عند نهاية الشوط، وهذه الرواية قد استلهمتها القصة من الحقيقة التاريخية عن موقعه العين التى أوردنا حديثها فى الفصل الأول.

ولكن القصة تأتى هنا بعجيبة طريفة. فهى تذكر أن الزناتى كان ابن جنية، فإذا طعن فى جسمه التأمت جراحه مع صباح اليوم التالى وعاد لمنازلة خصمه كما كان من قبل، وإذن لابد من أن يحتال أبو زيد لهذا الأمر، فما أن علم بأن ديابا طعن الزناتى فى عينه حتى تنكر فى مظهر طبيب عربى وخرج ينادى فى الحى بمهنتة . فطلبوه لاسعاف الزناتى من ألمه، فوضع له السم فى عينه، وبهذا ضمن موته، وهنا تتحدث القصة عن نهاية الزناتى حديثا مؤثرا يفيض بالأسى والألم، فهى تروى أن الزناتى علم بفعلة أبى زيد معه، وأن الجازية قصدته فوجدته فى موته فارسا مهابا حتى أنها تلثمت لما رأته وكانت لا تتوارى من رجل مهما كان قدره.

وبموت الزناتى خلا الجو للعرب، وتم لهم الاستيلاء على تونس والتربع على تخوت الغرب السبعة، ويعرف هذا القسم من القصة بقصة «السبع تخوت وسلطنة دياب وأبى زيد وتملك الأربع عشرة قلقة»، ويقول محرر الفهرس العربى لدار الكتب المصرية: «إنها قصة عجيبة وسيرة غريبة وهى من أحسن سير بنى هلال شعرا ونثرا. وأعجبها مقالا وأشدها حروبا ونزالا».

وبعد أن تأتى القصة على ما تم للهلاليين وإخوانهم من تملك البلاد وقوة السلطان، تأخذ فى سرد ما وقع بينهم من المنازعات وتجدد الخلافات القديمة والعداوات الدفينة، فكان أن قتل الحسن بن سرحان شبانة بن الأحيمر، وسجن دياب بن غانم، ثم تحولت الأحوال وقتل دياب الحسن ووقع القوم فى نزاع مستعر وحروب طويلة أدت إلى تفرق شملهم وذهاب ريحهم وتفرق أجيالهم فى الأقطار والأمصار، وهكذا تجرى القصة فى رواية القصاص وأحاديثهم، فبعد أن تشتعل جذوة من الحماسة وتشب نارا من الخصومة، تفيض بسيل من الدماء، وتأجج فيها العداوات والثارات، ثم تنتهى هادئة لينة يغمرها الأطمئنان والاستسلام فى نغمة حزينة أسيفة، كأنها دولة طويت، ودنيا انفضت وتكون الخاتمة لأحداثها الرهيبة وأهوالها العجيبة فى حديث الشعراء والمحدثين «وسبحان من له الدوام، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام».

الفصل الثالث

مظاهر البطولة كما تصوّرها القصة

أبطال القصة بين الحقيقة والخيال:

لعل أروع ما يأخذك فى القصة الهلالية هو ما فيها من تصوير بارع للبطولة، فهى مجال حرب ونزال، وسير أبطال ورجال، وميدان صاخب تحتشد فيه ألوان من الصور والأشكال، ولكنك على الرغم من هذا تجد لكل بطل فيها صورته الواضحة، وشخصيته المتميزة ووضعه الملائم الدقيق.

فأبطال القصة على ما بينهم من شدة المخالطة والممازجة والمزاحمة يبدون فى وضع مسرحى كله حياة وكله حركة، فكل بطل له دوره الخاص ومكانه المقدر حسب ما يقتضيه أداء الأدوار ومجرى الحوادث، وللمرأة فى هذه المسرحية دور هام ومكان بارز كأنه جاء مكملا للحبكة الفنية فيها وللعقدة المسرحية فى وضعها. ولو أن هذه القصة جردت من بعض التلفيقات التى كان يسخو بها خيال القصاص فى التعليق على

بعض الحوادث لجازت نسقا قصصيا منسجما لا شذوذ فيه ولا مؤاخذة عليه.

ومن أبطال القصة من هم بأسمائهم ونعوتهم من اختراع القصاص وابتداعهم، ومنهم من هم أشخاص تاريخيون أضفى عليهم القصاص من النعوت والصفات وأضافوا إليهم من الخوارق والمحالات ما يرغبون فيه ويميلون إليه، ويرونه مما يروج في الحديث عند العامة والجماهير. وقد ذكر ابن خلدون جلة من أبطال القصة البارزين الذين لهم وجود تاريخي، وما نريد في هذا الفصل أن نروي لك سير هؤلاء الأبطال على ما تثبته الحقيقة التاريخية، ولكنا نريد أن نعرض عليك صور بعض منهم كما تتجلى في القصة لتكون نماذج أمام القارئ لما آثره القصاص في تصوير البطولة في القصة.

الحسن بن سرحان:

الحسن بن سرحان، ويكنى أبو على، ويلقب بأمير القبائل أو بملك العرب أو بملك الملوك، وترجع شهرته الكبيرة عند العامة إلى الكرم أكثر مما ترجع إلى الحرب، وهم يضربون به المثل الرجل الكريم الضياف فيقولون: «عامل أبو على».

---

(١) راجع الفصل الأول

والحسن أول من تذكر القصة من الأبطال، وهي تقدمه دائما في كل موقف من المواقف وشأن من الشئون. وإنما تحرص على تقديمه مراعاة لحكم الأوضاع التقليدية، أو ما نسميه «نظام البروتوكول» في التعبير الحديث، وعلى هذا نجدها تحيط شخصيته بهالة من الجلال والمهابة وتصور بطولته على ما تقضي به الأرستقراطية الملوكية من الوقار والرزانة، فهو جواد يعطي أضعاف ما يعطي سواه. أبي يحمي من يلوذ بحماه. شجاع يبادر في الطليعة إلى النزال. مهذب لا يعرف إلا بحميد الخصال، يقدر ويعفو، ويغضب فيثأر. رأيه مسموع، وكلمته نافذة. مسيطرة فيما يتصل بشخصه ومكانته، ولكنه في شؤون الرعية خاضع لرأي الجماعة ومشورتهم. يباحثم فيما يجب من الأمر وما يصح من التدبير، ثم يأمر بما يتفقون عليه. ويمكن أن تعتبر شخصية الحسن في القصة أبعد الشخصيات عن التلفيق، فلم تسبغ عليه ما أسبغت على الآخرين من الغرائب والمحالات والخوارق والخرافات، ولكنها شخصية «ملوكية» مهذبة استمدت القصة صورتها مما كان معهودا في أوضاع الملوك والحكام يومذاك على أمثل ما يجب وأحب ما يكون، وإذا كان في جوانب هذه الشخصية شيء من الخروج على المألوف في الطبيعة الإنسانية، فهو الاسراف في الجود والتبذير في العطايا وبذل

المال فى سماحة إلى من يستحق ومن لا يستحق، وهذه لا شك ناحية خلعها عليه «الشعراء» استجابة لأهوائهم وأغراضم، وكثيرا ما يشيرون إلى بذخه فى الترحيب «بالشعراء» الذين كانوا ينزلون عليه، فيبالغ فى إكرام وفادتهم. ويضاعف فى إخراج أعطيتهم، وهى أشارة كما ترى لا يخفى الغرض فيها ولا المطلوب من ورائها، إذ كانوا بذلك يستحثون كرم الباذلين لهم والعاطفين عليهم.

أبو زيد الهلالى:

ويأتى بعد الحسن أبو زيد الهلالى، وهو أظهر بطل فى القصة بل هو بطلها ومدار الحديث فيها، وبه تعرف وتوصف وقد مر بك أن أبا زيد هذا كان اسمه أولا «بركات» ثم سمى «سلامة» نظرا لسلامةبنى زحلان على يديه، وبعد ذلك أخذ يعرف بأبى زيد الهلالى سلامة، ويكنى بأبى مخيمر أكبر أبنائه وأشجعهم ويوصف بالأسمر لأنه كان أسود اللون، وهو وصف يلذ للشعراء والمحدثين ترديده وتكراره.

وتصور القصة بطولة أبى زيد تصويرا خارقا، وتلصق به من النعوت ما هو فوق الطبيعة البشرية، ولا تقف فى هذا عند ناحية الشجاعة والفروسية، بل تمتد به إلى كل ناحية من النواحى التى

تتصل بحياة هذه البطل العظيم من يوم ولادته إلى مماته، فهى تحكى أن مولده كل تحقيقا لدعوة مجابة تضرعت بها والدته إلى الله، ثم تتحدث عن حياته فتذكر أنه شب على الفروسية والنجابة حتى استطاع فأن يقهر أشجع الفرسان وهو شاب حدث، مما لفت الأنظار إلى مهارته وبراعته، وجعل الناس يلهجون باسمه فى أحياء العرب، وأنت قد وقفت على الرواية فى نشأته مما أوردناه قبلا فى نسق القصة والتلخيص لمواقفها، وقد عرفته فى هذه النشأة بطلا خارق البطولة، فذ المواهب، موفق الخطوات، وهكذا عاش هذا البطل فى حياته الحربية والسياسية، وفى قيادته للجيوش، ونكايته بالاعداء، ورعايته للقبائل والنجوع، فهو فى الحرب شجاع مقدام يخف إلى كل معترك، ويتصدى لكل هجمة، ويسرع إلى منازلة كل خصم عنيد، وبطل صنديد، فلم يخذل فى موقف من المواقف ولم يغلب فى حرب من الحروب، وهو فى السياسة داهية واسع التقدير والحيلة، وتبالغ القصة فى تصوير بطولته فى هذه الناحية، فتروى أنه أعطى «جراب الحيلة»، فما كان يعجز عن التدبير لأى ورطة مهما بلغت من الصعوبة والشد، ولا كان يفقد صوابه أمام تحرج المواقف واستحكام الأزمات، ولأجل أن تسبغ القصة عليه هذه الصفة إسباغا ملائما أعطته كل المؤهلات اللازمة لها، فكان غاية فى

العلم بالسحر والتنجيم والطب والحكمة، واسع الخبرة والدراية بطبائع الرجال والنساء، عارفا بوسائل الدخول إلى النفوس، بارعا فى استمالة القلوب، ثم كان إلى جانب هذا كله رجلا متمسكا بإسلامه، شديدا فى دينه، له شخصية متسلطة فى الأمر والنهى وحزم الأمور، ولهذا كان فى الواقع هو المدبر الحقيقى لشئون القوم والأمير عليهم، وما كان الحسن ابن سرحان إلا طوع يده، ورهن إشارته وخلاصة ما تصفه به القصة أنه «صاحب المكر والكيد، وفارس العرب والعجم، والترك والديلم...».

دياب بن غانم:

أما دياب بن غانم فهو فى القصة ثالث الأثنين، فتأتى شخصيته فى البطولة من بعدهما، وتبدو صفاته معقولة أقرب إلى الواقع من الخيال، فهو فارس حرب، وبطل معارك، وترتفع بطولته فى هذه الناحية بمنازلته للزناتى خليفة وتغلبه عليه بعد أن أعجز كل شجاع وبطل، حتى أبا زيد نفسه والحسن بن سرحان كذلك. ولكن القصة تقتصد معه وتفتر فى حقه، فلا تدع له كل هذا الفضل، بل تذكر أن أبا زيد كان يعينه بحيلته، ويسعده بتدبير الخطط فى الضرب والنزال، حتى أنه لما طعن

الزناتى الطعنة القاتلة كان أبو زيد فى الجهة الثانية يضع السم فى جرح الفارس الصريع ليؤكد القضاء عليه.

وإذا كانت القصة قد بالغت فى التهويل عن نشأة أبى زيد، فإنها اقتصدت اقتصادا واقعيا فى الحديث عن نشأة دياب، بل أهملت نشأته كل الإهمال، فلم تذكر عنه إلا أن والده كان فارسا، وكان مزواجا، ولكنه لم ينجب من زوجاته، ثم تزوج بأم دياب وكانت غاية فى قبح الشكل ودمامة الخلقة، لها ناب بارز قبيح حتى قضت طول حياتها نمنتقبة من أجل ذلك، وقد رضى بها غانم زوجا طمعا فى أن ينجب منها، فلما كان له منها دياب صبر على معاشرتها أربعين عاما اعتزازاً بالفارس الذى حفظ اسمه فى قومه، وارتفع بذكره فى القبائل، وكان دياب كلما خالف والده فى أمر أمسك بيده ورفع النقاب عن وجه والدته وقال: لقد صبرت على الرضاء بهذا أربعين عاما من أجلك، فيذعن دياب لأمره ويسير على رأيه.

وتصور القصة ابن غانم بطلا شديد البأس، طويل الصبر على النزال، قوى الشكيمة على الخصم، ولكنه فى شجاعته متهور ضيق العطن شديد الاعتزاز بنفسه مغرور بشجاعته، وقد ارتسمت صورته هذه فى أذهان العامة حتى ليضربون به المثل فيقولون للرجل السريع الغضب الذى لا يصبر على احتمال

الأمور «أنت زغبى»، نسبة إلى زغبة قبيلة دياب، ومن جراء هذا التهور كان دياب يتطاول على السلطان حسن بن سرحان وَأبى زيد الهلالى، وخاصة بعد أن صرع الزناتى خليفة، حتى أخذ يتطلع إلى الملك والرئاسة على العرب، فكان لابدأن تقع الجفوة بينه وبين صاحبيه، وكان لابد أن يعملا على كبح جماحه وأن يأخذاه بالشدة، فكانت نهايته إلى القيد الثقيل والسجن سبع سنوات كاملة، ثم أطلقه السلطان حسن بعد أن تشفع له كثير من أمراء العرب وأعيانهم، وقد أحقد هذا ديابا فكان أن اغتال الحسن على فراشه كما قتل أبا زيد خيانة وهو يلعب معه. هكذا تروى القصة، ولكن الرواية التاريخية تقول؟: أن الذى قتل الحسن هم أولاد شبانة بن الأحيمر فى ثأر أبيهم كما مر بك.

الجازية أخت السحن:

وفى القصة صورة من البطولة الفذة لامرأة، وهى الجازية أخت الحسن بن سرحان، وتكنى بأم محمد وهو أبنها الذى أنجبته من شكر أمير مكة على ما قدمنا من خبر ذلك فى الفصل الأول. وتبدو صورة الجازية هذه صورة رائعة حقا، وكأن القصة بما أضفت عليها من صفات البطولة قد أرادت أن تجعلها صورة مثالية للمرأة البطلة، وكأن هذا المعنى هو الذى استهوى

المستشرق الفرنسى «بل» فجعل شخصية الجازية عنوانا لكتابه الذى قصره على هذه الناحية من التاريخ وهذه الشخصية الفذة من شخصيات القصة.

كانت الجازية آية فى الجمال، تصفها القصة بأنها كانت «جميلة المنظر لطيفة المحضر، بديعة الجمال، عديمة المثال، فى الحسن والكمال، والقد والأعتذال وفصاحة المقال، لا يوجد مثلها بين الخلق. لا فى الغرب ولا الشرق، كأنها الشمس الضاحية،، طلعتها تنعش الصدور والأرواح...!»، وإلى جانب هذا كانت الجازية تتمتع بمكانة رفيعة من الجاه، تزوجها أول الأمر شكر أمير مكة. فلما خرج الهلاليون من نجد أصروا على أخذها معهم واحتالوا على زوجها بأنهم فى رحلة للصيد فلما عدوا بها عن الديار وعلم شكر غرضهم تألم لمفارقة زوجه، ووجد بها وجدا شديدا، وكلفت هى أيضا به، وحزنت على مفارقة أبنها منه، وتروى «لشكر» فى الجازية أشعار يقول ابن خلدون أنها تزرى بقصص المجنون مع ليلى، فلما أنتهى الهلاليون فى رحلتهم إلى برقة طلب منهم ماضى بن مقرب أميرها أن يصهر إليهم فى الجازية، فرضوا بذلك حتى ينتفعوا بمعونة ابن مقرب ويضمنوا مشايعته لهم، ولكن الجازية أبت وتمنعت وفاء منها لشكر، حتى أدى ذلك إلى أزمة شديدة شغلت بال القوم وتطيل القصة فى

تصوير هذه الناحية من حياة الجازية، ثم تذكر أخيرا أن ماضى بن مقرب تلقى كتابا من شكر يتنازل له فيه عن الجازية، وبهذا حلت المشكلة، وتم زواجها من ماضى، ولا تعنى القصة بالحديث عن حياة الجازية الزوجية بأكثر من ذلك.

أما حياتها الاجتماعية والسياسية فهى مجال الظهور والبطولة، إذ تثبت لها القصة فى ذلك شخصية قوية لها مكانتها العالية وكلمتها النافذة، فما كان العرب يفصلون فى أمر دون الرجوع إليها، وتقول القصة أنها كانت تتمتع بريع المشورة فى شئون العرب وما يدبرون من الأمور، ومعنى هذا أن المرأة كان لها من المكانة والاعتبار عند هؤلاء البدو أرحب مما يحسب لها فى أمثل النظم الديمقراطية فى العصر الحديث، وإلى جانب منزلة الرأى كانت للجازية منزلة ظاهرة فى ميدان الحرب، فكانت فى كل معركة على رأس سرب من الفتيات الجميلات يشجعن الفرسان بأناشيدهن، ويحركن فى الأبطال وجدانات النخوة والشجاعة والدفاع عن الحريم وحماية الأعراض، كما كانت متقدمة فى مواقف التدبير والحيلة، تعرف كيف تدخل على نفوس الرجل من الناحية الضعيفة، فهى التى تصبت دياب ابن غانم وأخذت تثير فيه كوامن الشجاعة لتحمله على منازلة الزناتى والأخذ بثأر العرب منه، وهى التى عاونت أبو زيد

الهلالى فى الحيلة للدخول من سور القيروان والوقوف على أسرار الدفاع داخل المدينة مما ساعد الهلاليين على تحطيم ذلك السور الضخم، والاستيلاء على القيروان بعد الحصار الطويل على ما قدمنا فى الفصل الأول.

فبطولة الجازية كما تصورها القصة بطولة فذة، وإنها بمميزاتها الباهرة وصفاتها الرائعة، لخليقة بأن تأخذ مكانتها بين بطلات التاريخ، على وضع أن لم يصح كله من ناحية الحقيقة التاريخية فهو صورة مثالية خليقة بالتقدير والإعجاب.

الزناتى خليفة:

ويعتبر الزناتى الطرف الثانى فى القصة، فهو العدو الذى وقف فى وجه بنى هلال وصمد لنزالهم، وأذاقهم كثيرا من الأهوال والشدائد، وكل ما تذكره الرواية التاريخية عن الزناتى هذا أنه كان وزيرا لصاحب تلمسان، وأنه حارب الهلاليين فتغلبوا عليه وقتلو، فى موقعة الزاب، ولكن القصة تضعه فى صورة رائعة من البطولة، وتحمل عليه تاريخ النضال الطويل الرهيب الذى واجهه بنو هلال وإخوانهم فى أقطار أفريقية وبلاد الأندلس، وتقف به فى مقابلة الهلاليين قوة هائلة اقتضى اخضاعها كثيرا من الجهود والتضحيات، وكأن القصة قد أرادت

بهذه المبالغات التي نسجتها من حوله أن تمجد بطولة الهلاليين في تغلبهم عليه، وأن تشيد بقوتهم وشجاعتهم إذ قهروا عدوا ليس من السهولة أن يقهر.

أول ما تحكيه القصة عن الزناتي أنه كان ابن «جنية»، فكان إذا طعن بالسيف وأريق على جرحه قليل من «ماء الحياة» التأم لساعته مهما كان مبلغة من الخطورة، ولهذا السبب لم يستطع فارس من الفرسان أن ينال منه منالاً ولهذا السبب أيضا حير أمره الهلاليين حتى ضجروا من شدة حربه ووقوفه أمامهم، ولم يقدروا على قتله إلا بالحيلة، إذ طعنه دياب في عينه ووضع له أبو زيد السم في الجرح فسرى في جميع جسمه كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وتصف القصة الزناتي في بطولته بأنه كان فارسا شجاعا واسع الدراية بأساليب الحرب والحيلة فيها، صعب المراس، له حربة رهيفة، تقد الصخر المتين، فدانت الدنيا لسيفه، وأذعن الشجعان لبطشه ولما اقتحم بنو هلال بلاده نفر إليهم في جيوشه، وثبت لنزالهم، وصبر على حربهم في عناد واصرار حتى أفنى كثيرا من شجعانهم، وقد كان لشدة غيظه منهم يلجأ إلى أعنف أساليب القوة والرهبة، فكان إذا ما قتل فارسا من بني هلال اجتز رأسه وعلقه على سور القيروان ارهابا لهم وتشنيعا

عليهم، وكأنه بهذا الصنيع الشنيع يحارب أعصابهم ويقصد إلى تحطيم الروح المعنوية فيهم مما يعتبر أساس النصر فى أساليب الحرب والحديثة.

وكان الزناتى يعرف أن مصرعه لا يكون إلا بيد دياب بن غانم كما أنبأه بذلك المنجمون وأهل السحر والعرافة، وكان الهلاليون يعرفون ذلك أيضا، فلما ضاقت بهم الحيلة وضجروا من عناد الزناتى وشدة مراسه، أرسلوا إلى دياب وهو فى مؤخرة النجوع يثيرون نخوته بما قتل الزناتى من قومه، فركب دياب إليه وناداه إلى النزال، فلما علم الزناتى بذلك أيقن بإقتراب مصرعه. ولكنه نزل لحرب دياب فى صبر وثبات وبراعة تطيل القصة في شرح مواقفها، وتحكى بالتفصيل دقائق وقائعها، وقد طالت الحرب بينهما حتى ضجر من طولها الزناتى كما ضجر دياب، واخيرا استطاع دياب أن يصرع خصمه بخيانة سعدى بنت الزناتى لأبيها، ويموت الزناتى انتهت دولته لأنه كان البطل الوحيد فى قومه، ولم يثبتوا من بعده لحرب الهلاليين إلا قليلا ثم أذعنو لطاعتهم.

سعدى بنت الزناتى:

ولسعدى هذه موقف هام فى القصة وصورة أخاذة بما يشيع حولها من السمات والصفات والأقاويل والاشاعات، وبما يفيض

القصاص عليها من العواطف المتأججة والغرائز المتلهفة والآمال المكبوتة. أما الرواية التاريخية فلا تعرض لها بشيء إلا ما تذكر من أن والدها الزناتي كان يلقب بأبي سعدى، ومن الجائز عند العرب أن يلقب الرجل بابنته وأمه كما يلقب بابنه وأبيه، فلعل هذا كان من الجائز أيضا عند البربر.

وهناك رواية في نسب قبائل السعادى التي تنتشر في برقة وبعض جهات مصر تقول إن هؤلاء العرب من سلالة آمرأة تسمى سعدى من زناته، وهى بنت عظيم من عظمائهم أخذت في حرب ابن باديس، وتزوج بها زعيم بني سليم إذ ذاك، وكان رجلا عظيما يسمى بالذئب ويلقب بأبي الليل، ويقسم أولاد سعدى إلى ثلاث قبائل: ـ البراغيث ـ والعقاقرة ـ ومواطنهم في برقة ـ والسلالمة أو بني سلام، وهم أيضا ثلاث قبائل: الهنادى إذ وفدوا عليها ـ والجبالية ـ وجميعهم يسكنون بنواحي مصر، إذ وفدوا عليها من طرابلس في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة.

فهناك إذن أصل تاريخي تقوم عليه قصة هذه البطلة، وقد استغل القصاص هذا الأصل استغلالا كبيرا وانتقلوا بزمانه ومكانه والوضع الحقيقي فيه إلى الوضع الذى أرادوه في ترتيب حوادث القصة والتشويق بغرائبها وطرائفها . حتى ليمكن أن نقول أن كل ما تذكره القصة الهلالية عن سعدى بنت الزناتي

وما ترويه عنها ليس إلا من اختراع القصاص وابتداع خيالهم، وأنه لخيال خصب موفق فى رسم الصورة التى اختارها لهذه المرأة، بل فى رسم الصورة المثالية لكل امرأة تواجه الحياة بغرائزها وتفرض ميولها وهواها على كل شىء فى الوجود وتضعه فوق كل شأن من شئون الحياة والناس، مهما يكن شأن الحياة التى تواجهها وشأن الناس الذين يعترضون طريقها.

فقصة سعدى كما يرويها القصاص، هى فى الواقع قصة كل امرأة، ومثيلاتها كثيرات فى التاريخ وفى الحياة الواقعية، ولن نستطيع أن نقابل بين وضع سعدى ووضع الجازية فى القصة إلا فى الامتياز بالجمال والجاه ورفعة المكانة، ثم تختلف الصورتان بعد ذلك كل الاختلاف فالجازية كما مر بك كانت امرأة لها رأى راجح ومشورة نافعة، وكانت تشارك فى شئون الحرب والسياسة والتدبير للملك وتحمل من ذلك عبئا ثقيلا مثل ما يحمل الرجال، ثم كانت دائما فى موقف الغيرة على قومها ونصرتهم، حتى لقد ضحت بحبها لزوجها الأول فى سبيل معونتهم والرحيل معهم إلى الغرب، وعلى العكس من هذا كله كانت سعدى.

أجل! فقد كانت سعدى على ما تروى القصة وحيدة أبيها وهو سيد قومه، فكانت فى مقام رفيع من الجاه والمكانة. لا يرى أحد

الكفاءة فى نفسه لطلب يدها من أبيها، ولا ترى هى أن تتنزل فى قبول أحد أدنى من مكانتها، فلما وقع أبو زيد وفتيان الهلالية الثلاثة - يحيى ومرعى ويونس - فى سجن الزناتى، وساقهم إلى المشنقة بتهمة التجسس كما مر بك فى قصة الريادة أطلت سعدى للتفرج، فوقع نظرها على مرعى، فأخذت بجماله، وعلق قلبها بحبه، فأسرعت إلى أبيها بالشفاعة فى هؤلاء الغرباء الذين لا حول لهم، والذين قد يكونون أبرياء مما نسب إليهم، ورأت أن يسجنوا سجنا مؤبدا بدلا من إعدامهم، فأصاخ والدها لرأيها، وحقق لها رجاءها نظرا لإيثاره لها وبالغ شفقته عليها.

وأخذت سعدى تتردد على مرعى السجن كل ليلة فى خفية عن أبيها وقومها، فتكشف لمرعى عن غرامها به وحبها له وأملها فيه ويكشف هو الآخر عما فى قلبه لها من الغرام والحب والأمل، ولكنه مع ذلك مشغول بالمهمة التى تطوع من أجلها، حريص على الوفاء لشرف أهله وقومه، ثم هو عفيف النفس طاهر الذيل، فلا يستغل شرف الفتاة فى إشباع غرائزه، ولا يندفع للإستجابة لميولها ورغباتها، وإنما يعدها حياة الزوجية المكرمة، ويمنيها بأنه لو خرج من سجنه وأخبر قومه بهذا الحب فسيحضرون لخطبتها له وتتم لهم الأفراح والليالى الملاح، ولكن الفتاة كانت

تخشى أن يخرج من السجن فيرجع إلى قومه وينساها وهى لا تقدر على فراقه ولا تصبر على بعده. على أنها ماذا تقول لو الدها فى هذا الأمر، وماذا تحاول وهى تعلم حق العلم أنهم جواسيس، وأن ملك والدها مهدد إذا أفلتوا من اساره.. وأخيرا تغلب الحب على كل معنى آخر وفتق بالحيلة للفتاة، فاحتالت عند أبيها لخروج أبى زيد لأنه يعلم ما وراءه من الخير، ويعلم أن أبا زيد سيعود ببنى هلال وأخوانهم، فيغلب الزناتى على أمره ويخرج الفتيان الثلاثة من سجنه.

وجرت الأمور على ما قدر مرعى، فلم تمض إلا فترة من الزمان حتى رجع أبو زيد ومن ورائه جموع بنى هلال وسليم وإخوانهم لحرب الزناتى، وكانت سعدى على حالها من الهيام بحب مرعى والنزول لملاقاته كل ليلة خفية، وكان هو فى حال من القلق والاضطراب والتطلع إلى ما تجرى به الأقدار من تطوّر الحوادث مع قومه ونصرهم المنوط به خروجه من سجنه ، وكان على سلوكه مع الفتاة يعدها ويمنيها ويذكرها دائما بأنه رجل شريف، ومن نسل عربى عريق لا يعرف الخنا ولا يرضى الفجور فى الحب، فلما وصلت طلائع الهلاليين والتحمت جيوشهم بجيوش الزناتى أحست الفتاة أن أملها أوشك أن يتحقق وقدر مرعى أنه صار قريبا من أمله، ولكن الحرب طالت بين الفريقين

أكثر مما يجب، ووقف الزناتى عنيدا فى وجه الغزاة الفاتحين، وضجرت الفتاة والفتى من طول الانتظار أكثر مما ضجر المحاربون من قسوة النزال، وكان ضجر الفتاة أكثر، وكان الحب يستبد بعواطفها ويسلبها ارادتها حتى حملها على ركوب المركب الخشن، فاتصلت بالهلاليين، ودلتهن على مواقع الضعف فى والدها ، وفضحت لهم أسراره الحربية، وأنبأتهم بأن مصرعه لا يكون إلا على يد دياب ابن غانم كما أخبره بذلك العرافون، فكان هذا مما ساعد الهلاليين على إدراك غرضهم من الزناتى وأظفرهم به وبملكه.

ترى هل تكون عواطف الوفاء للحبيب أقوى من الوفاء للوالد؟ وهل يهم المرأة الظفر فى الحب أكثر مما يهمها الظفر فى الحرب؟

كل هذا تجيب عنه القصة بالايجاب فى تصرف سعدى، وكل هذا يتجلى واضحا فى قصة تلك المرأة التى سحقت عرش والدها فى سبيل الاحتفاظ بقلبها وإشباع عواطفها، أو أن شئت التحقيق فقل غرائزها، ومثيلات سعدى كما قلت لك كثيرات، وقد نجد هذه الشخصية فى الرجال وإن كان وجودها يكثر فى النساء.

ثم ماذا؟ ثم كان غدر القضاء بالفتاة أقسى من غدرها

بوالدها، فقد خرج مرعى من السجن، وانتظرت منه الفتاة الوفاء فلم يفعل، فخرجت إلى دياب الذى قتل أبيها وقصت عليه قصتها، وبكت بين يديه لعله يرق لحالها، فاحتجزها فى بيته ثم طلبها لنفسه، فنفرت من هذا الطلب وواجهته فى غلظة، وتهور معها دياب وأراد أن يذل نفسها حتى تذعن له، فألبسها الخيش وقدم لها الطعام الخشن، وقضى عليها بأن تطحن الملح، وأمر عبيده بالقسوة فى معاملتها، وكلما أصرت الفتاة على رفض طلبه أمعن فى القسوة عليها، ولجأت الفتاة إلى السلطان حسن، وشكت إليه ما قاسته من عنت دياب، فرق لحالها وأمر بأن تعيش فى بيته عيشة مكرمة، بل لقد أخذ فى حساب دياب حسابا عسيرا على فعلته، وكان هذا من الأسباب التى حملته على سجنه، وأخيرا تمت فصول الرواية العنيفة القاسية بأن زُفَّت سعدى إلى مرعى.

فليس من شك فى أن خيال القصاص كان خيالا خصبا موفقا فى خلق هذه الصورة القصصية، وحبك مواقفها حبكا دقيقا تضطرم فيه العواطف، وتتوزع فيه الميول والرغبات، وقد استهوت قصة سعدى ومرعى العامة كثيرا، وراح حديثها بينهم وجعلوه قصة قائمة بنفسها، ومن منا ينسى ما شاهد وما سمع فى (صندوق الدنيا) عن هذين العاشقين؟

الفصل الرابع

البطولة كما تصورها القصة

البطولة في القصة والبطولة عند العرب:

تلك صورة موجزة لبعض الأبطال المشهورين فى القصة، اخترناهم من الأشخاص الذين أثبت التاريخ وجودهم، وألمح العلامة ابن خلدون فى تاريخه إلى حقيقتهم، وقد أردنا بذلك أن نضع بين يدى القارىء أمثلة لما تؤثر القصة من الصفات والشمائل فى تصوير البطولة وتمييز شخصية البطل، والواقع أن القصاص قد جعلوا الأصل في هذه الناحية ما كان شائعا عند العرب، وهذا شىء طبيعى، فإن القصة قصة عربية وبيئتها عربية وأشخاصها من العرب.

فالعرب كانوا يشترطون في البطل الشجاعة والقوة والشهامة والمروءة وهبة الشعر والفصاحة والتقوى ورقة الخلال، والمهارة فى ركوب الخيل والبراعة فى أعمال السيف والرمح واكرام الضيف إلى غير ذلك مما يتجلى فى صور أبطالهم التاريخيين

مثل عنترة وعمرو بن معد كرب وحمزة وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد، وهذه كلها كما رأيت صفات عامة تخلعها القصة على جميع أبطالها، فإن فارقت بينهم فى شىء من ذلك فهى مفارقة من جهة الضعف والقوة لا من جهة انعدام صفة من تلك الصفات.

بل إنك لو نظرت إلى صور الأبطال فى هذه القصة وإلى صورة البطولة فى قصة عنترة وقصة المهلهل بن أبى ربيعة وقصة سيف بن ذى يزن وقصة الظاهر بيبرس وغيرها من القصص التاريخية التى لعب بحقائقها خيال القصاص، لرأيت الصورة واحدة ولرأيت هؤلاء الأبطال جميعا يلبسون لباسا متفقا فى السمات والصفات، حتى كأنهم فرسان جيش واحد، وليس الخلاف إلا فى سيرة الجهاد ومواقع الحروب والغارات.

البطولة فى القصة والبطولة عند اليونان:

وفي أبطال القصة أيضا مشابه كثيرة من صور الأبطال عند اليونان، وكثير من تاريخ هؤلاء وسيرهم يشبه تاريخ أولئك، فالبطل عند اليونان كان نصف إله فى وسعه أن يفعل الخير والشر كما يشاء، وهو قادر على أن يصنع بنفسه وبغيره ما يريد من الضرر والنفع، وليست أعماله إلا خوارق ومحالات،

وهذا يشبه إلى حد كبير ما ترويه القصة الهلالية من خوارق أبى زيد فى أعمال الحيلة والسحر والتنجيم والأخبار بالغيب والإفلات من كل نازلة، مما لا يتصور ولا يتحقق إلا بقدرة قادر، ثم هو يشبه إلى حد كبيرْ ما تذكره القصة عن الزناتى من أنه كان ابن جنية فكان إذا طعن بالسيف ووضع ماء الحياة على الجرح التأم وعاد فى اليوم التالى صحيح البدن سليم الجسم، ثم ما تتحدث به فى غير موضع من أن الفارس كان يضرب سيفه فيقضى على مائة، وينزل إلى الميدان فيتغلب على ألف.

ولو أنك رجعت إلى تاريخ أبى زيد الهلالى فى القصة، وتاريخ الأسكندر الأكبر فى قصص يونان لوجدت بينهما مشابهة كبيرة فى النشأة، فأم الاسكندر ولدته بعد أن رأت صاعقة انقضت على الأرض وأحرقت ما حولها، وقد اتهمت فيه. وقيل أن الاسكندر ليس بوالده ولكنه ولد من الإله «جوبيتر»، وكان بين الاسكندي ووالده شنآن ومباغضة لم يكن يحتملها والد الاسكندر إلا لما يراه فى ولده من نجابه وشجاعة خارقة. وكذلك أبو زيد الهلالى. فقد ولدته أمه بعد أن رأت معركة بين طائر أسود وطائر أبيض، وكانت الغلبة فيها للأسود كما مر بك، ثم أنها اتهمت فيه حين ولدته أسود لا يشبه والده، حتى اضطر الوالد أن يطلقها، فلجأت بولدها إلى رجل آخر نشأ أبو زيد وشب فى كنفه، ولم

تعد الصلة بين الوالد وولده إلا بعد أن التحما فى معركة عنيفة ظهرت فيها شجاعة أبى زيد وبطولته وتفرقه إلى آخر ما سبق أن أوردته عليك فى سياق القصة.

والرؤى والأحلام التى تشيع فى قصص يونان وتسيطر على تاريخهم نجدها ظاهرة واضحة كذلك فى القصة الهلالية، فكل حادثة خطيرة، وكل واقعة عظيمة، وكل عمل من الأعمال الكبيرة في القصة، لابد أن تسبقه رؤيا تنبىء به وتدل على النتيجة فيه، وفى القصة قسم خاص اسمه «منامات شيحة» وهى تتضمن الرؤى والأحلام التى رأتها شيحة أخت أبى زيد عندما خرج فى رحلة الريادة إلى بلاد المغرب.

حتى فى الناحية التاريخية، والأسطورية لوجود الأبطال ووضعهم القصصى يلاحظ المتأمل مقاربة عجيبة، فقد قلت لك من قبل أن أبطال القصة الهلالية منهم أشخاص تاريخيون لهم وجود أبطال اخترعهم القصاص اختراعا، وابتدعوا كل شىء عنهم، وكذلك الشأن فى أبطال اليونان فمنهم طائفة اشتهرت فى الأساطير وعدت من الأعيان مثل أخيل وأوليس وأغا ممنون، ومنهم من لا حقيقة له قط مثل هيراقليس وأوديب، وبعضهم أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس، وآخرون يذكرهم التاريخ وينصب إليهم أعمالا مثل ليبونيداس وميزاندر، وأن

نظرة فى المقارنة بين مواقع القصة الهلالية وما يروى من المواقع عن حروب طروادة لتدل الباحث على مشابهة كبيرة ومظاهر متفقة، وإن قصة حصار الهلاليين للقيروان التى رويناها لك بتفاصيلها من قبل لتشبه قصة حصار أغا ممنون لمدينة طروادة، فكل منهمادام مدة طويلة من الزمان وجرت فيها حروب ووقائع رهيبة مفزعة، ثم انتهى كل منها بالحيلة وتم الكسب فيها بالدس والوقيعة.

فهذه كلها مشابهات - وغيرها كثير - يلاحظها الباحث إذا ما قارن بين القصتين وقابل بين الأبطال هنا وهناك، بل أنه فى هذا الصدد ليقف على مشابهات أخرى بين سير الأبطال فى القصة الهلالية وبين مثيلاتها فى أساطير الفرس وخرافاتهم التى تحكيها الشاهنامه وغير الشاهنامة، وكذلك يستطيع أن يجد مثل هذا ولو إلى حد ما فيما يروى من القصص المصرى القديم.

فهل يصح أن يكفى هذا عند الباحث لأن يحكم حكما قاطعا بأن القصاص قد تأثروا بقصص اليونان ووقائع أبطالهم وما يحكى من أساطير الفرس وأعاجيبهم فى رواية القصة الهلالية وحبك فصولها ووقائعها وما أضافوه من الخوارق والمحالات إلى أبطالها ورجالها؟

أما ان القصاص قد تأثروا بالعرب فى ذلك فهذا ما لا شك فيه، بل أنه الأصل الذى كان ماثلا بين أيديهم فبنوا عليه وتوسعوا فيه، ولكن ذلك الأصل بقى ملحوظا فى كل نواحى القصة وبخاصة فيما تتحدث به عن بطولة الأبطال.

وأما أنهم تأثروا بما عرف من قصص اليونان والفرس فأن الباحث يجد نفسه بأزاء حقيقتين لا يستطيع إنكارهما:

الأولى: هى أن العرب قد عرفوا اليونان وتأثروا بفلسفتهم وأدبهم وما خلفوا من ضروب الثقافة العلمية والأدبية، كما أن المصريين قد عرفوهم قبل أن يعرفهم العرب بدهر طويل، إذ كانت الصلة بين المصريين واليونانيين فى القديم صلة وثيقة شاملة فى شتى النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية.

والثانية: هى أن كثيرا من القصاص فى مصر قد وفدوا عليها من العراق وخاصة بعد سقوط بغداد، وقد كان العراق على صلة وطيدة بمعارف الفرس وأدبهم وأساطيرهم، وقد نقل كثير من هذه الأساطير فى العراق إلى اللغة العربية وذاعت فى ألسن المحدثين والقصاص ، فلا شك أن الذين وفدوا منهم على مصر قد استغلوا ما عندهم من ذلك للتجارة والكسب فى مجالس الخاصة والعامة، والاغراب على الناس مما يزجون

إليهم من قصص شهى وحديث طريف.

وفى نظرة عامة إلى معارك الأبطال وملاحم القتال فى الشعوب القديمة نجد مشابهات كثيرة فى المواقع وسير الأبطال، وفى الأسلوب والنسق القصصى مما يسمونه «بالساجات» التى يرويها الرواة على نحو ما صنع الشعراء الهرميويون وشعراء القصة الهلالية. ومن بين هذه الساجات ثلاثون أو أربعون ساجة تنقل لنا معارك للأبطال الاسكندنافيين الذين اكتشفوا أيسلندا فى أقصى شمال الأطلنطى واستوطنوها وكانت لهم فى ذلك مغامرات ومعارك رواها الرواة وتحدثوا بها ودون عنهم كثير من الكتاب، هى فى روايتها صورة قريبة الشبه جدا من ملاحم الإلياذة والقصة الهلالية، ولا يستطيع أحد أن يقول أن هذا أخذ من هذا أو تأثر به.

هاتان حقيقتان بارزتان لا يستطيع أن ينكرهما الباحث ولا أن يغفل عنهما وهو بسبيل المقارنة بين ذلك القصص، ولكن على الرغم من هذا لا نستطيع أن نجزم للقارىء جزما علميا بأن القصاص الذين رووا قصص الهلاليين قد استلهموا القصص اليونانى أو الفارسى، ولا يمكن أن نضع أيدينا فى ذلك على حقيقة علمية تؤدى إليها أساليب البحث الحديث، لأن المشابهة لا تبدو إلا فى أمور عامة ووقائع شائعة تفطن إليها الأمم

بفطرتها، وتهتدى إليها بغرائزها وميولها، فقد كانت الغاية فى البطولة عند الأمم القديمة لا تعدو تمجيد وتقدير الحب والغرام بالجمال، وكانت الأداة فى ذلك هى السيف والمهارة والحيلة وكان الميدان لذلك هو ميدان النزال والصراع والتغلب على ما يملك الغير من القوة وما يقيم من الحواجز، وكان البطل كل البطل هو الذى يضع يده على الرؤوس ويملك الأمر والنهى ويفوز بأجمل الجميلات فى قومه أو فيما يجاوره من الأمم، وإذا ما لحظنا أن هذا هو الوضع العام والغاية المطلوبة عند الأمم القديمة فى نظرتها العامة إلى البطولة، أدركنا أن ما وراء ذلك من التفاصيل ليس إلا ما يقتضيه الاتجاه الطبيعى ويوحى به الأصل المنشود.

فالتشابه فى الأمور العامة ليس مظنة الأخذ والاقتباس، وليس للباحث أن يقيم عليه قاعدة للحكم، وخاصة إذا ما تقاربت الدوافع والبواعث واتفق الغرض والغاية، وهذا يكون فى القصص ويكون فى الشعر ويكون فى كثير من الاتجاهات الفكرية والعاطفية.

والاتفاق فى تلفيق المحالات والصاق الخوارق بالأبطال هو أيضا من التشابه فى إدراك الأمور العامة عند القدماء ـ لأنهم كانوا يفسرون مظاهر القوة بالغرابة وينظرون إليها على أنها

شيء ليس في متناول العقل، ولا من جنس الأمور المألوفة، وعلى هذا تصور اليونان المحال في أبطالهم، وألصق القصاص المصريون الخوارق والغرائب بأشخاص قصصهم، واعتقد العرب أن كل شيء عظيم من صنع الجن وعلمهم.

مقارنة بين البطولتين:

بقيت كلمة لا بد منها في المقارنة بين البطولة في قصص يونان والبطولة في القصة الهلالية، وأن الباحث ليلمس في مجال هذه المقارنة فرقا واضحا بين البطولتين، فقد كان البطل عند اليونان كما قلت لك نصف إله، فليس من طبيعة الناس ولا من جبلتهم، وإنه ليبدو فوق إدراكهم بخصائصه ومميزاته، وأفعاله ومحاولاته. أما البطل في القصة الهلالية فإنسان معقول، يجوز عليه ما يجوز على كل إنسان، وكل أعماله مما يدخل في الطاقة البشرية على وضع من المبالغة والتهويل، ومن ثم نستطيع أن نقول إن البطل في القصة الهلالية أقرب إلى الحقيقة الواقعية وأشد صلة بحياة الناس. وعندي أن هذا الفرق يرجع إلى التفاوت بين العقليتين، ولكنه يرجع أكثر إلى التفاوت بين الزمنين: فاليونان قد صوروا أبطالهم وهم يصورون معبوداتهم. أي في الفترة التي كانوا لا يزالون فيها يفتشون عن آلهة

ومعبودات ويبحثون عن نماذج ومثل عليا، لا للإنسانية، بل للألوهية التى توحى بها فكرتهم فى العبادة، فكان أن وضعوا أبطالهم فى مرتبة قريبة من آلهتهم إستجابة وخضوعا لسيطرة تلك الفكرة على أذهانهم وخيالاتهم.

أما قصاص القصة الهلالية فقد كانوا فى زمن خلصوا فيه من سيطرة تلك الفكرة، واتجهوا بالعبادة لله سبحانه وتعالى كما يقرره الدين ويفرضه الإسلام، وإنما كانت فكرة الإعجاب والتمجيد هى التى تسيطر على أذهانهم وخيالاتهم فى ذلك الوقت، وعلى هذا صوروا أبطال القصة فى صورة من المثل الأعلى الذى يستهوى الناس بالإعجاب والتمجيد لا بالتأليه والتقديس

والإعجاب يتفاوت فى مراميه إلى حد كبير، أما التقديس فيكون التفاوت فيه إلى حد ما، لهذا تجد الأبطال فى القصة الهلالية يتفاوتون فى مراتب الإعجاب ، فمرتبة الحسن بن سرحان فى ذلك غير مرتبة أبى زيد، ومرتبة أبى زيد غير مرتبة دياب، ومرتبة دياب غير مرتبة الزناتى، ومراتب هؤلاء كلهم غير مراتب الأبطال الأخرين الذين تذكرهم القصة مثل ماضى بن مقرب والقاضى بدير وزيدان ومخيمر ومطاوع والعلام وأبى خريبة وسواهم، أما مراتب الأبطال فى قصص اليونان فتبدو

متقاربة فى المكان وأن اختلفت فى المنازع والاتجاهات.

هذا ما يلمسه الباحث من الفرق بين تصوير البطولة فى القصص اليونانى والقصة الهلالية وهو الفرق المهم الأصيل، فكل ما يأتى بعده من الفروق فهى فروع عنه تستطيع أن ترجعها جميعا إليه.

الفصل الخامس

تأثير القصة فى المجتمع المصرى وتأثرها به

شاعر الربابة الذى سيطر على المجتمع المصرى:

ظلت قصة بنى هلال - أو قصة أبى زيد الهلالى كما هو شائع فى التعبير - حديث المجتمع المصرى ثمانية قرون، وظل شاعر الربابة يحدث بها الناس من العهد الفاطمى إلى اليوم، فكان أنس المجالس، وبهجة المحافل، ومجلى السرور والبشاشة. ذلك عهد أدرك الكثيرون منا مجاليه الساحرة، ولياليه الساهرة، ومجالسه العامرة على مصاطب القرى فى الريف، وفى مقاهى المدن والقاهرة، ولا تزال إلى اليوم تتراءى منه رسوم محيلة فى زوايا الأحياء الوطنية العريقة، إذ يقف المار بها ليلا على مقهى صغير شاحب يقوم فى حارة أو منعطف كأنه يمعن في التخفى من مظاهر المدنية الحديثة، وقد جلس فيه المحدث أو الشاعر للرواية والقصص، ومن حوله جماعة من أعيان الحى المقيمين

والتجار المحليين والشيوخ المتقاعدين يلتمسون لحكمه والقدرة في سير الأبطال وأحاديث السابقين، وكأنهم بالاصرار على تلك التقاليد الموروثة يكافحون بها فى معركة البقاء للإصلح فالناس ينظرون إليهم فى استخفاف، ويعتبرونهم طرازا قديما متخلفا عن روح العصر ومباهجة الممتعة التى تؤديها الآن الإذاعة أو الخيالة أو يقوم بها الأشخاص على المسرح، وهم كذلك ينظرون إلى هؤلاء الناس فى استخفاف ويرمونهم بالجهل لمورد الحكمة ومبعث البطولة ومجال الحجا والرزانة، والجرى وراء العبث التافة والتمويه الكاذب والشرور التى جلبتها المدنية لإفساد النفوس وتلف العواطف.

هذا «الشاعر» الذى يبدو اليوم شبحا ماثلا، ولونًا حائلا، وصوتا خافتا يتلاشى فى ضجيج العصر، إنما هو صورة ممتدة لصاحبه الذى ظل قرونا طويلة يسيطر على عواطف المجتمع المصرى، ويستهوى قلوب الناس بما يلقى عليهم من أفانين شعره وعجائب سحره، يجمعهم ويفرقهم ويهتاج من نفوسهم نوازع القوة والفتوة، ويملأ أسماعهم ونفحات جودهم بصفقة الرابح وغنيمة الظافر.

ورث هذا «الشاعر» مكانة القاص الذى كان يعظ بقصص الدين وأساطير الأولين، ويذكر الناس بأنباء آبائهم ومواقع

تاريخهم، وقد أخذ صوت ذلك القاص يتضاءل شيئا فشيئا ليخلى مكانه لذلك الشاعر الذى غزا المجتمع بنغم جديد وإنشاد ملائم وتوقيع مستحسن، وقصص مستحب للنفوس التى كبتت فيها نوازع البطولة، ورأت مجدها يتخطفه المغيرون من أوزاع الأمم، فكأنهم بالإقبال على هذه «الشاعر» كانوا يشبعون النقص المركب فى نفوسهم، ويرضون شهوة مطموسة فى ميولهم، ولقد تمت المكانة لهذا «الشاعر» فى السيطرة على عواطف المجتمع المصرى بين القرن الخامس والقرن السادس للهجرة على ما أوضحناه فى الفصل السابق، وظلت هذه المكانة تطرد نفوذا وقوة على مر العهود البائسة التى اكتنفت البلاد من جراء الحروب الصليبية ومن حكم المماليك وسيطرة الأتراك وغزو الفرنسيين، فكان المجتمع يعيش من أثر هذا كله مخدور الأعصاب مجذور الأسباب، يجد فيما يقصه ذلك الشاعر سلوته وراحته والتفريج عما يعانيه فى داخلية نفسه، وما يخيم من ظلال الحوادث على عقله.

فرق الشعراء والمحدثين فى المجتمع:

وقد عقد كلوت بك فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر» فصلا تحدث فيه عن قصة أبى زيد الهلالى وشغف المصريين بسماعها، ثم وصف ما كان للشعراء والمحدثين بهذه القصة من المكانة فى المجتمع القاهرى أيام محمد على باشا فقال:

«ينقسم المحدثون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة منها برواية قصة واحدة، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرق الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين، وأكثر تلك الفرق عددا الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء، فقد احتكر هؤلاء القاء قصة أبى زيد فى المجتمعات العامة، ويوجد فى القاهر وحدها الآن خمسون شاعرا من تلك الفرقة، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمى أعضاؤها بالمحدثين، ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسى ويسمى رجالها بالعنترية».

ويتحدث المستشرق الإنجليزى «إدوارد وليم لين» عن أهمية القصاص فى المجتمع المصرى فيقول: «والقصاص يغشون مقاهى القاهرة وغيرها من المدن. وخاصة فى ليالى الأعياد الدينية، ويسامرون الناس ببراعة تجذب القلوب. إذ يجلس

القاص فرق مقعد صغير فى أعلى المصطبة المقامة بطول واجهة المقهى، ويجلس بعض السامعين إلى جانبه، بينما يجلس البعض الآخر على مصاطب المنازل المقابلة فى الشارع الضيق، والباقون على مقاعد من الجريد، وأكثرهم يدخن الشبك، وبعضهم يرتشف القهوة، وهم جميعا فى غاية البهجة بسماع القاص لقوة تمثيله ولوضع القصة، وينفح صاحب المقهى الشاعر الحاكى مبلغا زهيدا من المال لجذبه المتفرجين، والمتفرجون لا يعطون الحاكى شيئا محتوما، على أن أكثرهم يمنحونه هبات، وقل فيهم من يدفع أكثر مما يربح من الأجر على حفل خاص ، لأن ربحه فى الحالة الأولى يناسب ما يظهر من المهارة والحذق والتأثير فى السامعين».

ثم يشير إلى رواة قصة أبى زيد المعروفين بالشعراء فيقول: «والشعراء أكثر الطبقات عددا وهم فى القاهرة خمسون تقريبا، ويسمون أيضا «أبو زيدية» ويتميز بعض الرواة بتسمية خاصة. الهلالية والزغبية والزناتية، تبعا لما يختصون به من سرد وقائع الأبطال المختلفين من قبائل بنى هلال وزغبة وزنانه المذكورة فى القصة، ويروى الشاعر على السامعين دائما من الذاكرة، ولا يستعين بكتاب وهو ينشد الشعر، ويعزف بعد كل بيت بعض نغمات على الرباب».

ويصف «كلوت» الآلة الموسيقية المعروفة باسم الربابة التى كان أولئك الشعراء يوقعون عليها أنغامهم وأشعارهم أثناء رواية القصة فيقول: «إنها آلة موسيقية ذات وتر واحد، وهى جديرة بالذكر، إذ تخرج منها أنغام شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية». أما «ادوارد لين» فيقول أن الرباب نوع غريب من الكمان، وكثيرا ما يستعمله المغنون الفقراء لمصاحبة الغناء، والرباب نوعان، رباب المغنى وهو ذو وترين، ورباب الشاعر وهو ذو وتر واحد، ومن السهل تحويل النوع الثانى إلى النوع الأول، إذ أن له ملويين، ويبلغ طوله أثنين وثلاثين بوصة، وجسمه اطار من الخشب، ويغطى صدره دون ظهره برقع، أما الوتر فمن شعر الخيل، ويستعمل الرباب دائما رواة قصص أبى زيد الهلالى وهم ينشدون الشعر، وراوى تلك القصص يسمى شاعرا، ولهذا سميت تلك الآلة برباب الشاعر، أو الرباب الأبو زيدى لاستعماله فى هذه المناسبة فقط، ويصطحب الأول على العموم عازف على رباب آخر من النوع نفسه، ويكتفى العازف أحيانا بنغمة احدة مقدمة وفاصلا.

وعلى أية حال، فمازالت «الربابة» معروفة وذائعة فى الإقليم المصرى، وخاصة فى الريف، وأن كانت مكانتها قد تضاءلت عن ذى قبل بمزاحمة العديد من الآلات الموسيقية التى ابتدعها

العصر، على أن أبناء الريف لا يفضلون عليها الة موسيقية أخرى، ولا يطربون لشيء مثل ما يطربون لصوتها الحماسي، فإنها تثير فيهم النخوة والحمية فتجدهم لدى سماعم لها يتصايحون بنداءات الحماسة والفتوة

كيف خفت صوت الشاعر:

كان ذلك شأن شاعر الربابة في المجتمع المصرى، لا صوت أندى من صوته ولا أثر أبلغ من أثره، وتقدمت مصر في شوط المدنية، ودرجت تأخذ بأسباب الحياة الحديثة أيام محمد على ثم أيام إسماعيل، ولكن مكانة ذلك «الشاعر» ظلت على الرغم من هذا قائمة معتبرة، وبقى سامره حافلا بمختلف الطوائف، وكان يشارك في أحياء الحفلات العامة والأفراح الكبيرة والليالى الساهرة. غير أن المجتمع القاهرى أخذ في أواخر عهد إسماعيل يتطور تطورا سريعا، ويبدأ يستقبل في اللهو السمر ألوان جديدة وفنوناً مستحدثة، وكان للمهرجانات العظيمة التى أقامها إسماعيل احتفالا بإفتتاح القناة وابتهاجا بزفاف أنجاله أكبر الأثر في ذلك، إذ إمتدت سهرات الغناء والرقص في مقاهى الأزبكية، وتألفت فرق صغيرة لتمثيل الأدوار المضحكة والتقاليع

الهزلية مثل فرقة كامل الأصيلى وفرقة مصطفى أمين، وظهر كثير من المهرجين الفكهين أمثال السيد قشطة وأحمد الفار، وكان أن قامت إلى جانب هذا كله دار الأوبرا التى أنشأها إسماعيل للتمثيل ثم «التياترو» أو ما يسمونه «بالسرك» الذى يتنقل فى أحياء القاهرة ومدن القطر الكبيرة، ثم نبوغ طائفة من أشهر المغنين أصحاب الأصوات الرخيمة أمثال عبده الحمولى وزوجته المز والشيخ يوسف المنياوى ومحمد عثمان وعبد الحى حلمى، فكل هذه الألوان الجديدة التى ظهرت وشغف بها الناس استطاعت أن تتغلب على ذلك «الشاعر» وأن تسلخ عنه عشاقه وقصاده، وهو يقف تجاه هذا كله يناضل عن دكانته ويدافع عن بضاعته، ولكن مظاهر المدنية الحديثة استمرت تتخطف عشاقه وقصاده، وتمطر المجتمع كل يوم بفنون من اللهو والسمر لا قبل لذلك الشاعر بها ، فأخذ ينكمش ويتوارى، وأخذ نغم ربابته يتضاءل يوما بعد يوم حتى صار إلى الحال التى نراه عليها اليوم.

أثر القصة فى المجتمع:

هذه هى قصة شاعر الربابة وما كان له من مكانة فى المجتمع، وسيطرة على النفوس دامت ثمانية قرون، ظل طوالها يحدث الناس بوقائع القصة الهلالية، ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم، ويقبس من رغبات السامعين ويفيض عليهم، ونحن نعرف أن المحدث يحرص على أن يؤثر بحديثه فى المستمعين له، وكثيرا ما يتمشى مع ميولهم فى قبول الحديث وما يقع من المعانى موقع الرضا والبشاشة، لهذا كان من الطبيعى أن يكون لهذا القصص أثر ظاهر فى المجتمع من الناحية النفسية والخلقية والاجتماعية، كما كان من الطبيعى أيضا أن يكون للمجتمع أثر فى تكوين ذلك القصص ونموه، وهذا ما يراه الباحث واضحا بمجرد النظر فى ذلك القصص. يقول أحد الكتاب فى مقال له «إن قصص بنى هلال كان لها أسوأ الأثر فى البلاد الإسلامية، فما من واحد من أهل تلك البلاد، بعد انتشار تلك القصص فيها - إلا ويريد أن يكون بطلا كأبطالها، ولو كان أولئك قتلة وقطاع طرق وناهبى أموال، فإذا أصبح واحد فى تلك البلاد بطلا فلا يكون همه إلا القتل ونهب أموال الناس كأولئك الأبطال الذين يتغنى شعراء الرباب بذكرهم، ولو بحثت

الآن فى مصرنا لوجدت لصوصها وقطاع الطرق فيها من ألئك الفتيان الذين يريدون أن يتحدث الناس عن بطولتهم كما يتحدثون عن بطولة أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم».

فهل هذا صحيح؟ وهل هذا هو الأثر الذى كان لذلك القصص فى نفوس الناس؟

إنه فى الواقع حكم مشوش، واسراف لا مبرر له، فقصص بنى هلال لم تعلم الناس السلب والنهب، ولم يكن أثرها هو ذلك الأثر السىء الذى شنع به الكاتب. حقا أنها أثرت فى نفوس العامة بشىء من الشر، ولكنها كذلك أثرت بكثير من الخير الذى كسبت به الأخلاق والحياة الاجتماعية وخاصة فى قرى الريف وبواديه.

حكى لى صديق من رجال القضاء أنه أدرك بالاستقراء والتثبت أن تسعين فى المائة من جرائم القتل التى تقع فى الصعيد بدافع الغيرة وحماية العرض، أو بباعث النخوة والعصبية إنما ترجع إلى ما يتأثر به الناس مع سماع قصص أبى زيد الهلالى وحكايات الأبطال التى يذيعها فيهم الشعراء.

وهذا صحيح، فإن قصة الهلالية ظلت درسا يلقى على الناس فى الاعتداد بالنفس والثبات على الشجاعة، وحماية الجار والمستجير، والدفاع عن العرض والحريم، والتعصب للاهل

والعشيرة، والمبادرة إلى مواجهة الخصم، والأنفة من الخضوع والخنوع، وغير ذلك من المعانى والصفات التى ترددها القصة كثيرا، وتصورها للناس فى صور مختلفة مقبولة تهفو إليها النفوس والقلوب، وقد يكون فى هذا ما يجر إلى الشر، ويبلغ بالنفوس الفتية إلى الطيش والرعونة والشطط فى التصدى والانتقام مما قد لا تقره القوانين الموضوعة، وأن كانت تقضى به التقاليد الموروثة.

على أن هناك من أثر هذه القصص فى الخير مالا يصح أن يجحد أو ينكر، فمن ذلك الحض على البذل والعطاء، وسماحة النفس، واقراء الضيف، واغاثة الملهوف، ومواجهة الشدائد، والصبر على الجهد، إلى آخر ما تجده شائعا فى القصة، وتجد العامة يحفظون فيه الحكم والأمثال، ويرددون له الشواهد مما جاء على لسان أبطال القصة، فأنت إذا أخذت فى الحديث مع أحد ابناء الريف فإنه لا يلبث أن يستشهد لك فى كل ما يقرره بما يحكى عن أبى زيد وما يروى عن دياب، وما وقع للزناتى.

وهناك ناحية أهم فى الأثر والتأثير، ذلك أن المجتمع الإسلامى بعد أن ربكته الحروب الصليبية المعروفة خضع لمقدور الحياة، وخنع لما تجرى به الأيام، واستكان لما تجلبه عليه الحوادث، وضعفت روح الأقدام والشجاعة التى كان يزكيها

فى النفوس إعداد الجيوش وإقتحام الحروب، فكان ترديد ذلك القصص فى المجتمع مما حفظ هذه الروح سليمة قوية فى نفوس القوم، بل زادتها تزكية وإثارة، وقد حكى لى رجل من المعمرين فى قريتنا كان جنديا فى حملات إسماعيل باشا فى السودان والحبشة أن قصة أبى زيد الهلالى كانت حديث سمرهم، وأن قائدهم كان يختار منهم من يسرد عليهم وقائع هذه القصة، ويكافىء الذين يحسنون سردها من الجنود.

فليس من شك فى أن القصة الهلالية قد أثرت فى المجتمع الذى تداولها تأثيرا كبيرا فى النواحى التهذيبية والخلقية والاجتماعية، وليس من شك فى أنها كانت درسا أخذه الناس بالوعى والفهم، وآثروه فى حياتهم وسلوكهم، على عكس ما أخذوه عن قصة ألف ليلة وليلة وما فيها من تهاويل الغرام والمجون، ولن يدرك هذا كله إلا من خالط الجموع فى مجالس الشاعر وهم يصيحون له، ورأى ذلك الشاعر وهو يتلاعب بعواطفهم ويستبد بأعصابهم.

الفصل السادس

أدب الهلاليين وشعرهم

نقصد فى هذا الفصل إلى الكلام على أدب الهلاليين وشعرهم، وإلى تناول القصة الهلالية من الناحية الأدبية، وما لها من القيمة فى ذلك، وليس من شك فى أن شعر الهلاليين نمط من الشعر العربى له لونه الخاص، ومميزاته الفريدة، وهو بهذا أحرى بأن يدرس على حدة، وأن ينظر إليه الباحث على أنه ناحية من نواحى التطور التى انتهى إليها الشعر العربى فيما بعد، مثل الموشحات والأزجال والقوما والدوبيت، ولكن أحدا من الباحثين لم يهتم بذلك اللون الشعرى الطريف كما اهتموا بتلك الألوان الأخرى، وقد تورع العلماء عن روايته وترفعوا عن الإهتمام به نظرا لما فيه من اللحن والخروج على قواعد الأعراب، كأنه فى تقديرهم ينزل عن مرتبة الزجل الذى ينظم بالعامية الخاصة، وعلى الرغم من ذلك فقد أولوه بعض العناية، وتظرفوا بروايته والغناء به، وكما كان ابن خلدون هو المؤرخ

الوحيد الذى اهتم بتاريخ بنى هلال وسليم وقصصهم، فقد كان أيضا هو الباحث الوحيد الذى أكبر أدبهم وتحدث عن شعرهم، ونعى على العلماء تزمتهم فى إهماله والإنصراف عنه.

لم يدون ذلك الشعر، ولم يصلنا بالرواية الصحيحة، إلا ما تشتمل عليه القصة من الأشعار، والقصة قد دخلها كثير من الانتحال والتلفيق على ما رأيت من قبل، فلا يستطيع الباحث مهما يجهد ذهنه ويمعن فى التنقيب أن يقع على الأصول الصحيحة والأشعار الحقيقية للقوم، ولكنه على الرغم من ذلك لا يعجز وهو بسبيل الدراسة لهذا الشعر عن أن يقف على خصائصه الفنية فيما يعرف من لغته وأسلوبه وغرضه، إلى آخر المظاهر التى تتجلى فى النصوص القليلة التى رواها ابن خلدون من هذا الشعر، وفى النماذج التى حفظتها القصة أو حيكت على مثاله على الأقل، وهذا ما نريد أن نعرض له فى هذا الفصل.

رأى ابن خلدون:

عنى ابن خلدون بالحديث عن شعر الهلاليين وقصصهم فى غير موضع من تاريخه، وفى المقدمة العظيمة التى كتبها لهذا

التاريخ، فقال وهو يتكلم عن تطور الشعر العربى وتنوع فنونه وأساليبه فى العصور المتأخرة:

«فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مصر، فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر، ثم بعد ذلك ينسبون، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب فى أشعارهم، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى، وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية، ثم يغنون به، ويسمون الغناء به باسم الحورانى نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهى من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد، ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معَصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت إلى آخر القصيدة تشبيها بالمربع وبالمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين، ولهؤلاء العرب

فى هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون، وكثير من المنتحلين لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الأعراب منها، وهذا إنما يأتى من فقدان الملكة فى لغاتهم، فلو حصل ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعة وذوقه ببلاغتها أن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره، وإلا فالاعراب لا مدخل له فى البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام المقصود لمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه، فالدلالة بحسب ما يصطلح أهل الملكة. فإذا عرف إصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الأعراب فى أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب..»

ثم عاد ابن خلدون يتحدث عن شعر الهلاليين وأدبهم مرة أخرى فى الجزء السادس من تاريخه وهو بسبيل الكلام عن

أنسابهم وتاريخهم فقال:

«ويروون كثيرا من أشعارهم محكمة المبانى متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء، وإنما تخلو من الأعراب فقط، ولا مدخل له فى البلاغة كما قررنا ذلك فى الكتاب الأول من كتابنا هذا، إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها، ويستنكفون منها، لما فيها من خلل الأعراب، ويحسبون أن الأعراب هو أصل البلاغة، وليس كذلك».

«وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة، وفقدت فيه صحة الرواية، فلذلك لا يوثق به، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآبائهم ووقائعهم مع زناته وحروبهم، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم، ولكنا لا نثق بروايتها، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع فيها ويتهمه، وهذا قصارى الأمر فيه..»

فالشعر الهلالى كما يرى ابن خلدون، نمط من الشعر العربى فى أسلوبه وأغراضه، ونهجه ومذاهبه، لم يخرج به القوم فى شيء إلا أنهم كانوا ينظمونه بلغتهم الملحونة، ولا يتمسكون فى أدائه بقواعد الأعراب وحركاته فى أواخر الكلم، هذا هو الذى جعل علماء العربية يهملون روايته ويترفعون عن النظر فيه على الرغم مما يتجلى فيه من إتفاق الأطراف وإحكام المبانى، وعلى

الرغم من أن الأعراب لا مدخل له فى مقياس البلاغة وتحققها كما يقول ابن خلدون.

الإعراب و صلته بالبلاغة:

وهذا الرأى الذى يبديه ابن خلدون فى الصلة بين الإعراب والبلاغة، رأى فيه بعض الحق ، وفيه أيضا بعض الباطل، فلا نستطيع أن نقبله من ابن خلدون على علاته، وإنه لجدير بالنظر والمناقشة.

حقاً أن الأعراب لا مدخل له فى البلاغة إذا اعتبرنا البلاغة معنى فنيا يشيع فى كل لغة، ويتحقق فى كل لهجة، فليس من شك فى أن فى اللغة العامية وفى معارضها الفنية من الزجل والأغانى الدارجة والأناشيد الشعبية، وفى اللغات الأجنبية بلاغة، وبلاغة فائقة، وهى لا تتقيد بقواعد الأعراب بل قد يكون استعمال الاعراب فيها مما يفسدها، ومع هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر ما فيها من مظاهر الروعة الفنية، وإلى هنا فنحن على اتفاق مع ابن خلدون فى رأيه.

ولكنا إذ ننظر إلى البلاغة فى دائرة اللغة العربية خاصة، فإننا لا نستطيع أن نوافقه على أن «الأعراب لا مدخل له فى البلاغة»، لأن مظاهر البلاغة فى أية لغة إنما تستمد عناصرها

من خصائص هذه اللغة ومميزاتها، والأعراب من أهم الخصاص التى تتميز بها العربية، فالعلماء لم يسرفوا ولم يتنكبوا الصواب إذا جعلوه شرطا أساسيا أوليا فى بلاغة الكلام العربى، وأغلب الظن أنهم حينما أنكروا الشعر الهلالى لعدم تقيده بقواعد الأعراب إنما أنكروا حسبانه أن يكون من كلام العرب الصريح، وأسلوبهم الصحيح، وأن كانوا أسرفوا فى هذا الإنكار، وتزمتوا غاية التزمت، حتى حملهم هذا على إهمال ذلك الشعر كل الإهمال، وأغفلوا ما فيه من مظاهر البلاغة لأنه فقد صفة واحدة هى التقيد بقواعد الأعراب.

خصائص الشعر الهلالى:

وإذن فلننظر إلى الشعر الهلالى على هذا الإعتبار طليقا من قيود الأعراب والتزاماته، وأنه لجدير بالنظر، وأن الباحث ليلمس فيه كثيرا من الخصائص الفنية والمظاهر الرائعة الطريفة التى تحببه إلى النفوس، وتتجاوب به مع عواطف القارىء فى كثير من الأحيان.

ولعل أول ما يلفت النظر من خصائص هذا الشعر هو ما فيه من صدق العاطفة وقوة الإحساس وسذاجة التصوير، وهذا شىء طبيعى، لأنه شعر البداوة والفطرة السمحة والإنفعال

النفساني الذى يفيض به التعبير فى وضوح وصراحة، وإنها لصفة تتجلى فى سائر الاتجاهات التى رامها هذا الشعر من الغزل والنسيب والشكوى والحنين والسلوى والتأسى والفخر والمنازلة والغضب والإثارة، إلى آخر تلك الفنون والأغراض، فلسنا نعدو الحق إذا سميناه شعر العاطفة، لأن القوم لم يتجاوزوا بأغراضه حدود الانفعال النفسى وما يشغل عواطفهم ومشاعرهم من شئون الحياة.

وهناك صفة أخرى لا تقل عن تلك الصفة وضوحا فى هذا الشعر، وهى الانسجام الموسيقى والمرونة التى تطاوع الصوت بشتى ألوان التنغيم والتطريب، وهذه الميزة هى التى طوعت لشعراء الربابة أن يتغنون بجميع ألوان هذا الشعر وأن يوقعوه على الربابة نغما منسجما ولحنا شجيا يهز القلوب، ويبدو لنا أن هذه الميزة قد تحققت لهذا الشعر من خلوصه من قيود الاعراب وإعتماد قائليه فى نظمه على التلحين الموسيقى والترجيع الغنائى، لأن حركات الإعراب فى أواخر الكلم كثيرا ما تقيد حركات اللحن وتضيق دائرة المرونة لا متداد الصوت وانتقالاته، وتقف ثقيلة فى الملاءمة بين قرار النغم وجوابه وما يسميه أهل الفن بحركة الربط فى النغم الموسيقى.

وثمة صفة ثالثة تتجلى أمام الباحث فى هذا الشعر وهى قوة

الروح الدينية، فكثيرا ما يرد فيه ذكر الموت والحشر والحساب والعقاب وخوف الآخرة والاستسلام للمقادير والتفويض لله، ومن تقاليدهم الظاهرة فى هذا ابتداء القصائد بالصلاة على النبى، وقد يختمونها بذلك، والظاهر أن القصاص والوضاعين قد بالغوا فى تصوير هذه الناحية وإبرازها، فكانوا يعتمدون هذا التقليد فى كل ما ينتحلونه من الشعر فى القصة نظرا لما لهذا الإتجاه الدينى من قوة التأثير على نفوس العامة والوصول إلى قلوب السامعين.

وإلى جانب هذه الخصائص فى الشعر الهلالى، يلاحظ الباحث بعض الخصائص الأخرى فى أسلوبه وطريقة التأدية فيه، فمن ذلك ما يحرص عليه الشاعر فى أغلب الأحيان من التصريح بأسمه فى أول القصيدة، والهجوم على الغرض فى غير تقدمة ولا تطويل، وايثار بعض التعابير يكررونها كثيرا فى أشعارهم، وقد يكررونها فى القصيدة الواحدة عدة مرات.

القصة من الناحية الأدبية:

بقيت كلمة أخيرة عن القصة من الناحية الأدبية، ونعنى القصة بوضعها الذائع الشائع وما فيها من شعر مطبوع ومصنوع وحقائق وخيالات ووقائع ومبالغات، وغاية ما يصفها

الباحث فى هذا أنها قصة شعبية استوفت عناصرها على هذا التقدير، وحازت كل ضروب البراعة فى ملاءمة عقلية الجماهير واستفزاز عواطف الجموع الشعبية، ومن أجل هذا ظلت القصة حية فى بيئات الشعب تلك الآماد الطويلة، وستظل كذلك إلى آماد طويلة.

وأسلوب القصة مختلف، بمعنى أنه متغاير فى طبعات القصة الكثيرة، ولكنه يتفق فى أصول ثابتة ويجرى على أوضاع متفقة تجعلنا نحكم عليه حكما متفقا، فهو أسلوب بارع فى الحكاية، سهل العبارة، يكثر فيه السجع والرنين الموسيقى، ويأخذ بالأوصاف الحسية والتشبيهات الملموسة، وكثيرا ما تتوارد فيه بعض التعبيرات والأوصاف. فلا تتغير ولا تتبدل فى كل واقعة، وتقع فيه كلمة «قال الراوى» بين كل واقعة وواقعة كأنها استراحة لذهن السامع، وكأنها أيضا تنبيه له على الانصات والمتابعة، واستعمال كلمة «قال الراوى» على هذا الوضع، وهذا الترتيب من خصائص القصة الهلالية، لم يستعمله القصاص والرواة من قبل، وكأنهم أرادوا بهذا أن يقابلوا الوضع المألوف عند المؤلفين من العرب فى إيثار العنعنة فى الرواية وإسناد القول إلى قائله وكأنهم بهذا قصدوا إلى أن يؤكدوا للسامعين أن القصة حقيقة تاريخية رواها الرواة كما رووا وقائع التاريخ..

هل هى ملحمة شعرية؟:

وهذا سؤال تردد أكثر من مرة فى معرض المناقشة بين النقاد وهم بصدد الحديث عن الوضع الفنى للقصة الهلالية، وهل هى ملحمة شعرية تقف إلى جانب ملحمة هو ميروس الذائعة؟ وكانت الإجابات عن هذا السؤال تختلف وتتعثر فى الوصول إلى رأى قاطع.

فقد كان الأدباء من أبناء الجيل الماضى الذين تثقفوا بالثقافة الأجنبية يحبون أن يقدروا قيمة الشعر العربى بميزان الشعر الأجنبى، وكان يحلوا لهم أن يتهموا التراث الشعرى للعرب بالعجز والتقصير لأنه خلا من ملاحم البطولة على النحو الذى عرف فى الياذة هوميروس، وما فيها من آلهة كبار وصغار، وأبطال قتال ونزال، وكلمة ملحمة فى العربية هى القتال، أو موضعه ، وقد أطلقناها فى العصر الحديث على القصص الشعرى الذى يدور حول الحرب والقتال، ولكن بعض الأدباء أنكروا أن تكون كلمة ملحمة وصفا لهذا النمط من الشعر، فوضع «الأب أنستاس الكرملى» بدلا منها كلمة «العلواء»، ولكن هذه العلواء لم يرتفع لها صوت وبقيت كلمة ملحمة هى الذائعة والشائعة.

وفى الجيل الماضى جرت مناقشات كثيرة حول وجود

الملحمة الشعرية فى الشعر العربى، فبعضهم قال بوجود صورتها فى الشعر القصصى الحماسى وأن لم توجد باسمها، وبعضهم أنكر وجودها بتاتا، وأنكروا وجود الشعر القصصى الحماسى عند العرب، وقالوا أن العرب لهم شعر حماسى يقوم على التفاخر بالشجاعة والكرم والبطولة، فهو فى حقيقته شعر وصفى لا شعر قصصى، وكان رأى «البستانى» معرب الألياذة أنه لا سبيل إلى القول بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها فى عرف الأفرنج.

ونحن لا ندخل فى متاهات هذه المناقشات التى تقوم على تعصب الرأى، ولكننا نصدع بالرأى والحق فى شريعة الأدب، فنقرر أن القصة الهلالية الياذة العرب، وملحمة بطولة وأبطال، وأن خلت من أوهام الوثنية وخيالها السائم فى تصور آلهة كبار وصغار تتاوزى وتتوالد، وتتعادى وتتحاقد، إلى آخر ما هناك من خرافة العقل المتخبط، وأن هذا الذى خلت منه القصة الهلالية ليزيد فى قيمتها الأدبية، وفى قدرها الإنسانى على تلك الألياذة الهومرية التى يحسبها المفتونون بها كل شىء فى دنيا الأدب الإنسانى، وأنها القمة التى لا تطاول فى شعر الآخرين.

فى القصة الهلالية ملاحم حرب، ومعارك أبطال تتفاوت درجاتهم فى البطولة كما شرحنا ذلك من قبل، وقارنا بينهم وبين

أبطال ألياذة هو ميروس، ولو أنها وجدت من ينظم كتاباً قائماً بنفسه، لجاءت ملحمة فى أدب البطولة ومجالى الأبطال أشهى وأمتع من الألياذة، ولكن يبدو أن الذى صرفنا عن هذا هو أن القصة رويت بالشعر الملحون الذى لا يقيد بضوابط الأعراب. وأن ما فيها من نثر أقرب إلى العامية المبتذلة، ومن هنا اعتبرنا القصة من صميم الأدب الشعبى، وكانت من تراث الجماهير الشعبية، على حين تحاماها العلماء والذين يفخرون بعزة البيان العربى، وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الملحمة الشعرية وجدت فى الأدب الشعبى على نحو ما يراد من وجودها فى عرف الأفرنج، قبل أن يكتمل وجودها بما يرضى هذا العرف فى الأدب العربى.

* * *

وأما بعد فإلى هنا أقف بالقارىء، ولعلى أن أكون قد وفيت البحث عن هذه الناحية من تراثنا الشعبى فى حدود ذلك الوضع الضيق، والله ولى التوفيق والسداد، ومنه العون والرشاد.



الأعداد
القادمة



- خيال الظل
تأليف : د. ابراهيم حمادة

رقم الايداع : ٩٨/١٠٨٣٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

أبو زيد الهلالى

إن هذا الكتاب على صغر حجمه نتاج بحث دءوب مضن، وفحص وتحقيق وتدقيق. لقد أضاء هذه السيرة وأبرز قميتها الجوهرية الأصيلة. وكانت أول طبعة لهذا الكتاب فى سلسلة إقرأ بدار المعارف فى عام ١٩٤٦، ثم اختفت لمحدوديتها. وأعيد طبعه مرة أخرى فى دار ومطابع المستقبل عام ١٩٨٣ وكانت هى الأخرى محدودة. ونظراً لأهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية والأدبية آثرنا أن نعيد طبعه فى مكتبة الدراسات الشعبية لعلنا نوقظ الاهتمام مجددا بهذه السير والملاحم التى يجب أن نظل نتعلم منها إلى ما لا نهاية.





الأمل للطباعة والنشر

مكتبة الدراسات الشعبية